الأخلاق والسير

في مداواة النفوس

تصنيف الإمام

أبي محمد علي بن أحمد ابن حزم الأندلسي (رحمه الله)

(المتوفى سنة ٤٥٦ هـ)

قرأه وضبط نصه وخرج أحاديثه وعلق عليه

طارق بن عبد الواحد بن علي

دار ابن الجوزي

الأخلاق والسير
في مداواة النفوس

الطبعة الأولى
١٤٣٤ هـ
الطبعة الثانية
١٤٣٨ هـ

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية: الدمام - طريق الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٨٢
الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨ - جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الإحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ - جدة - ت: ٦٨١٣٧٠٦ - بيروت - هاتف: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - القاهرة - ج.م.ع - محمول: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٨٣ - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
الإسكندرية - ٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣ - البريد الإلكتروني:
aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدِّمة المعتني

ـ عفا اللَّهُ عنه ـ

الحمدُ للَّهِ الذي جعل العلم للقلبِ شفاءً، وللعقل نورًا، وللنفس زكاةً، وللروحِ سرورًا، وأشهدُ ألا إلٰه إلا هو الواحد الحقُّ الكبير، العليمُ الخبير، تعالى عن المثيل والنظير.

وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه الصادق الأمين، مَن أرسله ربُّه على حينِ ظلام من القلوب، وفسادٍ من العقول، ليرشدَ الخلائقَ إلى طريق الرشاد، ويعيدَ إلى حياتِهم الصوابَ والسداد.

صلَّى اللَّهُ عليه وعلى آلِهِ وصحبه والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم العرض والتناد.

أما بعد:

فبين أيديكم ـ أحبابي ـ رسالةٌ لطيفةٌ للإمام العلامة الفقيه الظاهري أبي محمد بن حزم الأندلسي رَحِمَهُ اللَّهُ؛ وهي رسالةٌ تخاطبُ في مضمونِها القلوب لتزكوَ وتعيَ لماذا خُلقت، وكيف تسيرُ في حياتِها القصيرة.

وهٰذه الرسالةُ ـ على صِغَر حجمِها ـ عظيمةُ النفع والفائدة، فيها خلاصةٌ لأفكار الإمام وتجاربِهِ في الحياة، أهداها لمن بعده إرشادًا ونُصحًا. وحقيقةً لقد حوت من النفائس والدُّرر والكلمات العجيبة ما يجدرُ بكل مريدٍ لصلاح قلبه ولفهم حقيقةِ الحياة مِن حوله أن يعضَّ عليها بالنواجذ.

ولا أريد أن أُطيل في التقدمة لهٰذه الرسالة؛ فإن القارئَ الكريم عند اطلاعه عليها سيدركُ نفائسها وعزَّة فوائدها.

ولقد قمتُ بخدمةِ هٰذه الرسالة القيمة عن طريق ضبطها بالشكل، وبيان غوامض المعاني قدْرَ طاقتي، وتلافي التصحيف والتحريف، وأضفتُ إلى ذٰلك عناوينَ كاشفةً قبلَ كل فقرةٍ تدلُّ على ما تحتها؛ سائلًا ربِّي تبارك وتعالى أن ينفعَ بها إخواني، وأن تكون خيرَ مُعينٍ لهم على تزكيةِ القلوب وإشراق العقول.

فإليكم ما سطرتْه يدُ الإمام، وأنصح بالتأنِّي والتروِّي في فهم عباراتِه، فتحتَها من الفوائد والخبايا أكثرُ مما علَّقت عليه، واللَّهُ يهدينا وإياكم إلى سواء السبيل.

وآخرُ دعوانا أن الحمد للَّهِ رب العالمين، وصلَّى اللَّهُ وسلم وبارك على حبيبنا محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين، آمين، آمين، آمين.

أخوكم

أبو شُعيب

طارق بن عبدالواحد بن علي

ـ عفا اللَّهُ عنه برحمته ـ

* * *

ترجمةٌ موجزةٌ للإمام ابن حزمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ

□ قال عنه الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

الإمام الأوحد، البحر، ذو الفنون والمعارف، أبو محمد عليُّ بن أحمد ابن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي اليزيدي، كان جدُّه «يزيد» مولًى للأمير «يزيد» أخي معاوية.

وكان جده «خلف بن معدان» هو أول من دخل الأندلس في صحابة ملِك الأندلس عبدالرَّحْمٰن بن معاوية بن هشام؛ المعروف بـ«الداخل».

ولد أبو محمد بقرطبة في سنة أربع وثمانين وثلاثِمِئة.

نشأ في تنعُّم ورفاهية، ورُزق ذكاءً مفرطًا، وذهنًا سيَّالًا، وكتبًا نفيسةً كثيرةً، وكان والده من كبراء أهل قرطبة؛ عمل الوزارة في الدولة العامرية، وكذٰلك وَزِرَ أبو محمد في شبيبته، وكان قد مَهَر أولًا في الأدب والأخبار والشعر، وفي المنطق وأجزاء الفلسفة، فأثرت فيه تأثيرًا ليته سلِم من ذٰلك، ولقد وقفتُ له على تأليفٍ يحضُّ فيه على الاعتناء بالمنطق، ويقدمه على العلوم، فتألَّمتُ له، فإنه رأسٌ في علوم الإسلام، متبحِّرٌ في النقل، عديمُ النظير على يُبسٍ فيه، وفرطِ ظاهريةٍ في الفروع لا الأصول.

قيل: إنه تفقه أولًا للشافعي، ثم أداه اجتهاده إلى القول بنفي القياس كله جليِّه وخفيِّه، والأخذِ بظاهر النص وعموم الكتاب والحديث، والقول بالبراءة الأصلية، واستصحاب الحال، وصنف في ذٰلك كتبًا كثيرة، وناظَر عليه، وبسط لسانه وقلمه، ولم يتأدب مع الأئمة في الخطاب؛ بل فجَّج العبارة، وسبَّ وجدَّع؛ فكان جزاؤه من جنس فعله، بحيث إنه أعرض عن تصانيفه جماعةٌ من الأئمة، وهجروها، ونفَّروا منها، وأُحرقت في وقت، واعتنى بها آخرون من العلماء، وفتشوها انتقادًا واستفادةً، وأخذًا ومؤاخذةً،

ورأوا فيها الدُّرَّ الثمين ممزوجًا في الرصف بالخَرز المَهين، فتارةً يطربون، ومرةً يَعجَبون، ومن تفرُّده يَهزَؤون.

وفي الجملة فالكمال عزيز، وكلُّ أحدٍ يؤخذ من قوله ويُترك، إلا رسول اللَّه ﷺ.

وكان ينهضُ بعلوم جَمَّة، ويُجيد النقل، ويُحسن النظم والنثر، وفيه دينٌ وخير، ومقاصدُه جميلة، ومصنَّفاته مفيدة، وقد زهد في الرئاسة، ولزم منزلَه مكبًّا على العلم، فلا نغلو فيه، ولا نجفُو عنه، وقد أثنى عليه قبلنا الكبار.

قال أبو حامد الغزَّالي: «وجدتُ في أسماء اللَّه تعالى كتابًا ألَّفه أبو محمد ابن حزم الأندلسي يدلُّ على عظم حفظه وسيلان ذهنه».

وقال الإمام أبو القاسم صاعد بن أحمد: «كان ابن حزم أجْمَعَ أهلِ الأندلس قاطبةً لعلوم الإسلام، وأوسعَهم معرفةً؛ مع توسُّعه في علم اللسان، ووفور حظه من البلاغة والشِّعر، والمعرفةِ بالسير والأخبار؛ أخبرني ابنه الفضل أنه اجتمع عنده بخط أبيه أبي محمد من تواليفه أربعُمِئةِ مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة.

وقال أبو عبداللَّه الحُميدي: كان ابن حزم حافظًا للحديث وفقهه، مستنبطًا للأحكام من الكتاب والسنة، متفننًا في علومٍ جَمَّةٍ، عاملًا بعلمه، ما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاءِ وسرعةِ الحفظ، وكرم النفس والتدين، وكان له في الأدب والشعر نفَسٌ واسع، وباعٌ طويل، وما رأيتُ من يقول الشعر على البديه أسرعَ منه، وشِعرُه كثيرٌ جَمعتُه على حروف المعجم.

وقال أبو القاسم صاعد: كان أبوه ـ أبو عمر ـ من وزراء المنصور محمد ابن أبي عامر ـ مدبر دولة المؤيد باللَّهِ بن المستنصر المرواني ـ ، ثم وزِر للمظفر، ووزِر أبو محمد للمستظهر عبدالرَّحْمٰن بن هشام، ثم نَبذ هٰذه

الطريقة، وأقبل على العلوم الشرعية، وعُني بعلم المنطق وبرع فيه، ثم أعرض عنه.

قلت[١]: ما أعرضَ عنه حتى زَرع في باطنه أمورًا وانحرافًا عن السُّنة.

قال: وأقبل على علوم الإسلام حتى نال من ذٰلك ما لم ينَلْه أحدٌ بالأندلس قبله.

وقد حطَّ أبو بكر بن العربي على أبي محمد في كتاب «القواصم والعواصم» وعلى الظاهرية، فقال: هي أمةٌ سخيفة، تسوَّرت على مرتبةٍ ليست لها، وتكلمتْ بكلام لم تفهمه، تلقَّوه من إخوانِهم الخوارج حين حُكِّم عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم صفين، فقالت: «لا حكم إلا للَّه».

وكان أول بدعة لقيتُ[٢] في رحلتي: القول بالباطن، فلما عدتُ وجدت القول بالظاهر قد ملأ به المغرب سخيفٌ كان من بادية إشبيلية يُعرف بـ«ابن حزم»، نشأ وتعلق بمذهب الشافعي، ثم انتسب إلى داود، ثم خلع الكل، واستقل بنفسه، وزعم أنه إمامُ الأمة يضعُ ويرفع، ويحكم ويَشرَع، ينسب إلى دين اللَّه ما ليس فيه، ويقول عن العلماء ما لم يقولوا تنفيرًا للقلوب منهم، وخرج عن طريق المشبِّهة في ذات اللَّه وصفاته، فجاء فيه بطوام، واتَّفق كونه بين قوم لا بصرَ لهم إلا بالمسائل، فإذا طالبهم بالدليل كاعوا[٣]، فيتضاحك مع أصحابه منهم، وعضَّدته الرئاسةُ بما كان عنده من أدب، وبشُبَهٍ كان يوردُها على الملوك، فكانوا يحملونه ويَحْمُونه بما كان يلقي إليهم من شُبهِ البدع والشرك، وفي حين عَوْدي من الرحلة ألفيتُ حضرتي منهم طافحة، ونارُ ضلالهم لافحة، فقاسيتهم مع غير أقرانٍ وفي عدم أنصارٍ إلى حساد

(١) الكلام للإمام الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٢) الكلام للإمام ابن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٣) كاعُوا: جبُنوا.

يطؤون عقبي، تارةً تذهب لهم نفسي، وأخرى ينكشر لهم ضرسي، وأنا ما بين إعراض عنهم أو تشغيب بهم، وقد جاءني رجل بجزء لابن حزم سماه «نكت الإسلام» فيه دواهي، فجردت عليه نواهي، وجاءني آخر برسالة في الاعتقاد، فنقضتها برسالة «الغرة»، والأمر أفحش من أن ينقض.

قلت[1]: لم يُنصف القاضي أبو بكر رَحِمَهُ اللَّهُ شيخَ أبيه في العلم، ولا تكلَّم فيه بالقسط، وبالَغ في الاستخفاف به، وأبو بكر فعلى عظمته في العلم لا يبلغ رتبة أبي محمد ـ ولا يكاد ـ! فرحِمَهما اللَّهُ وغفر لهما.

قال اليسعُ ابن حزم الغافقي ـ وذكر أبا محمد ـ، فقال: أما محفوظُه فبحرٌ عجَّاج، وماءٌ ثجَّاج، يخرجُ من بحره مَرجانُ الحكم، ويَنبُتُ بثجَّاجه ألفافُ النِّعم في رياض الهمم، لقد حفِظ علوم المسلمين، وأربى على كل أهلِ دين، وألف «الملل والنحل»، وكان في صباه يلبس الحرير، ولا يرضى من المكانة إلا بالسرير. أنشد المعتمدَ فأجاد، وقصد «بلنسية» وبها المظفر أحد الأطواد.

وحدثني عنه عمرُ بن واجب قال: بينما نحن عند أبي ببلنسية وهو يدرِّسُ المذهب، إذا بأبي محمد بن حزم يسمعُنا ويتعجَّب، ثم سأل الحاضرين مسألةً من الفقه، جُووب فيها، فاعترض في ذٰلك، فقال له بعض الحُضَّار: هٰذا العلمُ ليس من منتحَلاتك! فقام وقعد، ودخل منزله فعكف، ووَكَف[2] منه وابلٌ فما كَف، وما كان بعد أشهر قريبةٍ حتى قصَدَنا إلى ذٰلك الموضع، فناظَر أحسن مناظرة، وقال فيها: أنا أتبعُ الحقَّ وأجتهد، ولا أتقيد بمذهب.

قلت: نعم، مَن بلغ رتبة الاجتهاد، وشهد له بذٰلك عدةٌ من الأئمةِ لم يسُغ له أن يقلِّد، كما أن الفقيهَ المبتدئ والعاميَّ الذي يحفظُ القرآن ـ أو كثيرًا منه ـ لا يسوغُ له الاجتهادُ أبدًا، فكيف يجتهد؟ وما الذي يقول؟ وعلامَ يَبني؟

---

(١) أي: الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٢) وَكَف: سال.

وكيف يطيرُ ولما يُريِّش؟!.

والقسم الثالث: الفقيهُ المنتهي اليقِظ الفِهم المحدِّث، الذي قد حفظ مختصرًا في الفروع، وكتابًا في قواعد الأصول، وقرأ النحو، وشارك في الفضائل؛ مع حفظه لكتاب اللَّه وتشاغُله بتفسيره وقوَّةِ مناظرته، فهٰذه رتبةُ مَن بلغ الاجتهاد المقيد، وتأهل للنظر في دلائل الأئمة، فمتى وَضَح له الحقُّ في مسألة، وثبت فيها النص، وعمل بها أحدُ الأئمة الأعلام ـ كأبي حنيفة مثلًا ـ، أو كمالك، أو الثوري، أو الأوزاعي، أو الشافعي، وأبي عُبيد، وأحمد، وإسحاق، فلْيَتَّبِعْ فيها الحقَّ ولا يسلُكِ الرُّخَص، ولْيتورَّعْ، ولا يسَعْه فيها ـ بعدَ قيام الحجة عليه ـ تقليدٌ.

فإن خاف ممَّن شغَّب عليه من الفقهاء فلْيَتكتَّمْ بها، ولا يتراءى بفعلها، فربما أعجبته نفسه، وأحبَّ الظهورَ فيُعاقب، ويدخلُ عليه الداخلُ من نفسه، فكم من رجل نطق بالحق، وأمر بالمعروف، فيسلِّطُ اللَّهُ عليه من يؤذيه لسوء قصده، وحبِّه للرئاسة الدينية، فهٰذا داءٌ خفيٌّ سارٍ في نفوس الفقهاء، كما أنه داءٌ سارٍ في نفوس المنفِقين من الأغنياء وأرباب الوقوف والتُّرَب المزخرفة، وهو داءٌ خفي يسري في نفوس الجند والأمراء والمجاهدين، فتراهم يلتقون العدوَّ، ويصطدم الجمعان وفي نفوس المجاهدين مخبَّآتٌ وكمائنُ من الاختيال وإظهار الشجاعة ليقال، والعُجب، ولبس القراقل[1] المذهَّبة، والخوذ المزخرفة، والعُدد المحلَّاة على نُفوس متكبِّرة، وفرسانٍ متجبرة، وينضاف إلى ذٰلك إخلال بالصلاة، وظلم للرعية، وشرب للمسكر، فأنَّى ينصرون؟ وكيف لا يخذلون؟ اللهم: فانصر دينك، ووفق عبادك.

فمَن طلب العلمَ للعمل كسَرَه العلمُ، وبكى على نفسه، ومَن طَلب العلم للمدارس والإفتاء والفخر والرياء، تحامَق واختال، وازدرى بالناس، وأهلكه

(١) القراقل: نوعٌ من الثياب.

العجب، ومقتته الأنفس.

قال الشيخ عز الدين بن عبدالسلام ـ وكان أحد المجتهدين ـ :ما رأيت في كتب الإسلام في العلم مثل «المحلَّى» لابن حزم، وكتاب «المغني» للشيخ موفق الدين.

قلت: لقد صدق الشيخ عز الدين، وثالثهما: «السنن الكبير» للبيهقي، ورابعها: «التمهيد» لابن عبدالبر؛ فمن حصَّل هٰذه الدواوين، وكان من أذكياء المفتين، وأدمن المطالعة فيها؛ فهو العالِمُ حقًّا.

ولابن حزم مصنفاتٌ جليلة: أكبرها كتاب «الإيصال إلى فهم كتاب الخصال» خَمْسةَ عشر ألف ورقة، وكتاب «الخصال الحافظ لجمل شرائع الإسلام» مجلدان، وكتاب «المجلَّى» في الفقه مجلد، وكتاب «المحلَّى في شرح المجلَّى بالحجج والآثار» ثماني مجلدات، كتاب «حجة الوداع» مئة وعشرون ورقة، كتاب «قسمة الخمس في الرد على إسماعيل القاضي» مجلد، كتاب «الآثار التي ظاهرها التعارض ونفي التناقض عنها» يكون عشرة آلاف ورقة، لٰكن لم يتمه، كتاب «الجامع في صحيح الحديث» بلا أسانيد، كتاب «التلخيص والتخليص في المسائل النظرية»، كتاب «ما انفرد به مالك وأبو حنيفة والشافعي»، «مختصر الموضح» لأبي الحسن بن المغلس الظاهري، مجلد، كتاب «اختلاف الفقهاء الخمسة مالك، وأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد، وداود»، كتاب «التصفح في الفقه» مجلد، كتاب «التبيين في هل علم المصطفى أعيان المنافقين» ثلاثة كراريس، كتاب «الإملاء في شرح الموطأ» ألف ورقة.

كتاب «الإملاء في قواعد الفقه» ألف ورقة أيضًا، كتاب «در القواعد في فقه الظاهرية» ألف ورقة أيضًا، كتاب «الإجماع» مجيليد، كتاب «الفرائض» مجلد، كتاب «الرسالة البلقاء في الرد على عبدالحق بن محمد الصقلِّي»

مجيليد، كتاب «الإحكام لأصول الأحكام» مجلدان، كتاب «الفِصَل في الملل والنحل» مجلدان كبيران، كتاب «الرد على من اعترض على الفِصَل» له، مجلد، كتاب «اليقين في نقض تمويه المعتذرين عن إبليس وسائر المشركين» مجلد كبير، كتاب «الرد على ابن زكريا الرازي» مِئة ورقة، كتاب «الترشيد في الرد على كتاب الفريد» لابن الراوندي في اعتراضه على النبوات مجلد، كتاب «الرد على من كفَّر المتأولين من المسلمين» مجلد، كتاب «مختصر في علل الحديث» مجلد، كتاب «التقريب لحد المنطق بالألفاظ العامية» مجلد، كتاب «الاستجلاب» مجلد، كتاب «نسب البربر» مجلد، كتاب «نقط العروس» مجيليد، وغير ذٰلك.

وغير هٰذا كثير.

وقد امتُحن لتطويل لسانه في العلماء، وشُرِّد عن وطنه، فنزل بقريةٍ له، وجرت له أمور، وقام عليه جماعةٌ من المالكية، وجرت بينه وبين أبي الوليد الباجي مناظراتٌ ومنافرات، ونفَّروا منه ملوك الناحية، فأقصته الدولة، وأحرقت مجلدات من كتبه، وتحول إلى بادية لبلة في قرية.

قال أبو الخطاب ابن دحية: كان ابن حزم قد برص من أكل اللُّبان، وأصابه زَمانة، وعاش ثنتين وسبعين سنة غير شهر.

قلتُ: وكذٰلك كان الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ يَستعمل اللبان لقوة الحفظ، فوَلَّد له رمي الدم.

قال أبو العباس ابن العريف: كان لسانُ ابن حزم وسيف الحجاج شقيقين.

وقال أبو بكر محمد بن طَرْخان التركي: قال لي الإمام أبو محمد عبدالله ابن محمد ـ يعني والد أبي بكر بن العربي ـ: أخبرني أبو محمد بن حزم أن سبب تعلُّمِه الفقه أنه شهد جنازة، فدخل المسجد، فجلس ولم يركع، فقال له رجل: قم فصل تحية المسجد ـ وكان قد بلغ ستًّا وعشرين سنة ـ، قال:

فقمتُ وركعت، فلما رجعنا من الصلاة على الجنازةِ دخلت المسجد، فبادرت بالركوع، فقيل لي: اجلس اجلس، ليس ذا وقت صلاة ـ وكان بعد العصر ـ ! قال: فانصرفت وقد حزنت، وقلت للأستاذ الذي رباني: دُلَّني على دار الفقيه أبي عبداللَّه بن دحون.

قال: فقصدته، وأعلمتُه بما جرى، فدلني على «موطأ» مالك، فبدأت به عليه، وتتابعت قراءتي عليه وعلى غيره نحوًا من ثلاثة أعوام، وبدأت بالمناظرة.

ثم قال ابن العربي: صحبتُ ابن حزم سبعة أعوام، وسمعت منه جميعَ مصنفاته سوى المجلد الأخير من كتاب «الفِصَل»، وهو ستُّ مجلدات، وقرأنا عليه من كتاب «الإيصال» أربع مجلدات في سنةِ ستٍّ وخمسين وأربعمئة، وهو أربعةٌ وعشرون مجلدًا، ولي منه إجازةٌ غير مرة.

قال أبو مروان بن حيان: كان ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب، وما يتعلق بأذيال الأدب، مع المشاركة في أنواع التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة، وله كتب كثيرة لم يخْلُ فيها من غلطٍ لجراءته في التسور على الفنون ـ لا سيما المنطق ـ ؛ فإنهم زعموا أنه زلَّ هنالك، وضل في سلوك المسالك، وخالف أرسطاطاليس واضع الفن مخالفةَ مَن لم يفهم غرضه، ولا ارتاض، ومالَ أولًا إلى النظر على رأي الشافعي، وناضل عن مذهبه حتى وُسم به، فاستهدف بذٰلك لكثير من الفقهاء، وعيب بالشذوذ، ثم عدل إلى قول أصحاب الظاهر، فنقَّحه، وجادَل عنه، وثبت عليه إلى أن مات، وكان يحمل علمه هٰذا، ويجادل عنه من خالفه على استرسالٍ في طباعه، واستنادٍ إلى العهد الذي أخذه اللَّهُ على العلماء: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، فلم يكُ يلطِّفُ صدْعَه بما عنده بتعريض ولا بتدريج؛ بل يصكُّ به مَن عارضه صكَّ الجندل، ويُنشِّقُه إنشاق الخردل، فتنفرُ

عنه القلوب، وتُوقِعُ به الندوب، حتى استُهدف لفقهاء وقته، فتمالؤوا عليه، وأجمعوا على تضليله، وشنَّعوا عليه، وحذَّروا سلاطينهم من فتنته، ونَهَوا عوامَّهم عن الدنو منه، فطفق الملوك يُقصُونه عن قربِهم، ويسيِّرونه عن بلادهم إلى أن انتهوا به منقطع أثره: بلدةٍ من بادية لبلة.

وهو في ذٰلك غير مرتدع ولا راجع، يبثُّ علمه فيمن ينتابُه من بادية بلده، من عامة المقتبسين من أصاغر الطلبة، الذين لا يخشَون فيه الملامة، يحدِّثهم ويفقِّهُهم ويدارسهم، حتى كمُل من مصنفاته وقرُ بعير، لم يعد أكثرُها باديته لزهد الفقهاء فيها، حتى أُحرق بعضُها بإشبيلية، ومزِّقت علانية، وأكثرُ معايبه ـ زعموا ـ عند المنصف جهلَه بسياسة العلم التي هي أعوص...[1]، وتخلفه عن ذٰلك على قوة سبحه في غماره، وعلى ذٰلك فلم يكن بالسليم من اضطراب رأيه، ومَغيب شاهدِ علمه عنه عند لقائه، إلى أن يحرَّك بالسؤال، فيتفجر منه بحرُ علم لا تكدِّرُه الدلاء، وكان مما يزيد في شنآنه تشيُّعُه لأمراء بني أمية ـ ماضيهم وباقيهم ـ ، واعتقادُه لصحة إمامتهم، حتى نُسب إلى النصب[2]!!.

قلتُ[3]: ومن تواليفه: كتاب «تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل»، وقد أخذ المنطق ـ أبعده اللَّهُ من علم ـ عن: محمد بن الحسن المذحَجي، وأمعن فيه، فزلزله في أشياء.

ولي أنا ميلٌ إلى أبي محمد لمحبته في الحديث الصحيح، ومعرفته به، وإن كنت لا أوافقه في كثيرٍ مما يقوله في الرجال والعلل، والمسائل البشِعة في الأصول والفروع، وأقطع بخطئه في غير ما مسألة، ولٰكن لا أكفِّرُه، ولا

---

(١) كذا في الأصل غير واضحة. «تحقيق السير» (١٨/ ٢٠١).

(٢) النَّصْب: من أوصاف الخوارج، ويطلق ـ أيضًا ـ على من ناصب عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ العداء.

(٣) أي: الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ.

أضلَّه، وأرجو له العفو والمسامحة وللمسلمين، وأخضعُ لفرط ذكائه وسعةِ علومه.

ورأيتُه قد ذكر قول من يقول: أجلُّ المصنفات «الموطأ»، فقال: بل أولى الكتب بالتعظيم «صحيحا البخاري ومسلم»، و«صحيح ابن السكن»، و«منتقى ابن الجارود»، و«المنتقى» لقاسم بن أصبغ، ثم بعدها كتاب أبي داود، وكتاب النسائي، و«المصنف» لقاسم بن أصبغ، و«مصنف أبي جعفر الطحاوي».

قلت: ما ذَكر «سنن ابن ماجه»، ولا «جامع أبي عيسى»؛ فإنه ما رآهما، ولا أُدخلا إلى الأندلس إلا بعد موته.

ثم قال: و«مسند البزار»، و«مسند ابني أبي شيبة»، و«مسند أحمد بن حنبل»، و«مسند» إسحاق، و«مسند» الطيالسي، و«مسند» الحسن بن سفيان، و«مسند» ابن سنجر... وذكر غير هٰذا كثير، وفي نهايتها ذكر «موطأ» مالك بن أنس.

قلتُ: ما أنصف ابن حزم؛ بل رتبة «الموطأ» أن يُذكر تِلوَ «الصحيحين» مع «سنن أبي داود والنسائي»، لٰكنه تأدب، وقدم المسندات النبوية الصرف، وإن «للموطأ» لوقعًا في النفوس ومهابةً في القلوب لا يوازنُها شيء.

ولمَّا أحرق المعتضد بن عباد بعض كتبه قال ابن حزم:

فإن تَحرِقوا القرطاس لا تَحرِقوا الذي
تضمَّنه القرطاسُ بل هو في صَدْري

يسيرُ معي حيثُ استقلَّت ركائبي
وينزلُ إن أُنزل ويُدفن في قبري

دعوني من إحراقِ رَقٍّ وكاغدٍ
وقولوا بعلمٍ كي يَرى الناسُ مَن يدري
وإلا فعودوا في المكاتب بدأةً
فكم دون ما تبغُون للَّهِ من سِترِ
كذاك النصارى يَحرِقون إذا علت
أكفُّهمُ القرآنَ في مُدنِ الثغرِ

ومن شعره:

أُشهد اللَّهَ والملائكَ أني لا أرى الرأيَ والمقاييسَ دِينَا
حاشَ للَّهِ أن أقول سوى ما جاء في النص والهُدى مستبينَا
كيف يَخفَى على البصائر هٰذا وهو كالشمس شُهرةً ويقينا

فقلتُ مجيبًا له:

لو سلِمتم من العموم الذي نعلمُ قطعًا تَخصيصه ويقينَا
وتورَّطبتم فكم قد بِيستم لرأينا لكم شفوفًا مبينَا

ولابن حزم:

مُناي من الدنيا علومٌ أبثُّها وأنشرُها في كل بادٍ وحاضرِ
دعاءٌ إلى القرآن والسُّنن التي تناسَى رجالٌ ذِكرَها في المَحاضِرِ
وألزمُ أطرافَ الثغور مجاهدًا إذا هيعةٌ ثارت فأولُ نافرِ
لِألقى حِمامي مقبلًا غير مدبرٍ بسمر العوالي والرقاقِ البواترِ
كفاحًا مع الكفار في حَومةِ الوغى وأكرمُ موتٍ للفتى قتلُ كافرِ

فيا رب لا تَجعل حِمامي بغيرها ولا تَجعَلْني من قطينِ المقابرِ

وقال ـ أيضًا ـ :

هل الدهرُ إلا ما عرَفْنا وأدركنا فجائعُه تبقى ولذاتُه تفنى
إذا أمكنَتْ فيه مسرَّةُ ساعةٍ تولَّت كمَرِّ الطَّرْفِ واستخلفت حُزنَا
إلى تبعاتٍ في المعاد وموقِفٍ نودُّ لديه أننا لم نكن كُنَّا
حنينٌ لِمَا ولَّى وشُغلٌ بما أتى وهمٌّ لِمَا نخشى فعيشُك لا يَهنَا
حصَلنا على همٍّ وإثمٍ وحسرةٍ وفات الذي كنَّا نلذُّ به عنَّا
كأنَّ الذي كنَّا نُسرُّ بكونِهِ إذا حقَّقَتْه النفسُ لفظٌ بلا معنى

وله أشعارٌ سوى ذٰلك كثير.

وكانت وفاتُه في عام ستٍّ وخمسين وأربَعِمِئةٍ، فكان عمرُه إحدى وسبعين سنةً وأشهرًا(١).

رحمَ اللَّهُ الإمام ابن حزم وعفا عنه، وأسكنه فسيح جناته.

❁ ❁ ❁

(١) الترجمة مستفادة من «سير أعلام النبلاء»، للإمام الذهبي (١٨/ ١٨٤ : ٢١٨)، بتصرف واختصار.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدِّمة المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ

الحمد للَّه على عظيم مِنَنِه، وصلَّى اللَّه على سيدنا محمدٍ عبدِه وخاتمِ أنبيائه ورُسُله، وسلَّم تسليمًا كثيرًا. وأبرأُ إليه تعالى منَ الحول والقوة، وأستعينُه على كلِّ ما يعصمُ في الدنيا من جميعِ المخاوف والمكاره، ويُخلِّصُ في الأخرى من كل هولٍ وضيق.

أما بعد:

فإني جَمعتُ في كتابي هٰذا معانيَ كثيرةً؛ أفادنيها واهبُ التمييز تعالى بمرورِ الأيام وتعاقُب الأحوال؛ بما منحني ﷻ من التهمُّم بتصاريف الزمان[1]، والإشرافِ على أحواله، حتى أنفقتُ في ذٰلك أكثرَ عمري، وآثرتُ تقييدَ ذٰلك بالمطالعة له والفكرةِ فيه على جميعِ اللذات التي تميلُ إليها أكثرُ النفوس، وعلى الازدياد من فضول المال.

وزممتُ كلَّ ما سَبَرْتُ[2] من ذٰلك بِهٰذا الكتاب لينفعَ اللَّهُ به من يشاء من عباده ممن يصلُ إليه ما أتعبتُ فيه نفسي، وأجهدتُها فيه، وأطلتُ فيه فكري فيأخذه عفوًا، وأهديتُه إليه هديًا، فيكون ذٰلك أفضلَ له من كنوز المال وعقد الأملاك؛ إذا تدبره ويسَّره اللَّه تعالى لاستعماله.

وأنا راجٍ ـ في ذٰلك ـ منَ اللَّه تعالى أعظمَ الأجر لنيَّتي في نفع عباده وإصلاحِ ما فسد من أخلاقهم، ومداواةِ علل نفوسهم، وباللَّه تعالى أستعين، وحسبنا اللَّهُ تعالى ونِعمَ الوكيل.

❁ ❁ ❁

(١) التهمم: الاهتمام. تصاريف الزمان: أحداثه وعجائبه.

(٢) زممت: ربطت. سبرت: تتبعتُ.

فصل: في مُداواةِ النفوس وإصلاحِ الأخلاقِ الذميمة

لذةُ العاقل بتمييزه، ولذةُ العالِم بعلمه، ولذةُ الحكيم بحكمته، ولذةُ المجتهد للَّه ﷻ باجتهاده: أعظمُ من لذة الآكل بأكله، والشاربِ بشُربه، والواطيءِ بوطئه، والكاسبِ بكسبه، واللاعبِ بلَعِبِه، والآمرِ بأمره.

وبُرهانُ ذٰلك: أن الحكيم العاقل والعالِمَ والعامل واجدون لسائرِ اللذات التي سمينا كما يجدُها المنهمِكُ فيها، ويُحِسُّونها كما يُحسُّها المقبلُ عليها، وقد تركوها وأعرضوا عنها، وآثروا طلب الفضائل عليها، وإنما يحكمُ في الشيئين مَن عرفهما؛ لا مَن عرف أحدهما ولم يَعرف الآخر[١].

[فصل: آمالُ الدنيا لا بقاء لها]

إذا تعقَّبَتِ الأمورُ كلُّها فَسَدت عليك، وانتهيتَ في آخِر فكرتك ـ باضمحلال جَميع أحوال الدنيا ـ إلى أن الحقيقة إنما هي العملُ للآخرة فقط؛ لأن كل أملٍ ظفرتَ به فعُقباهُ حزنٌ؛ إما بذهابه عنك، وإما بذهابك عنه، ولابد من أحدِ هٰذين الشيئين؛ إلا العمل للَّه ﷻ؛ فعُقباهُ على كلِّ حالٍ سرورٌ في عاجلٍ وآجل.

أما في العاجل: فقلَّةُ الهمِّ بما يهتمُّ به الناس، وإنك به مُعظَّمٌ من الصديق والعدو.

وأما في الآجل: فالجنة.

(١) فالذي يعرفُ الحقَّ ـ فقط ـ، دون أن يَفهمَ حقيقةَ الباطل، أو الذي يعرفُ الباطلَ جيدًا، لٰكنه جاهلٌ بالحق؛ لا يصحُّ له أن يحكمَ على الأمور. وهٰذه الكلمة أصلٌ بديعٌ في الدعوة والفتوى والقضاء.

[فصل: نفيُ الهموم غايةُ كلِّ حي]

تطلَّبتُ غرضًا يستوي الناسُ كلُّهم في استحسانه وفي طلبه، فلم أجده إلَّا واحدًا؛ وهو طردُ الهمِّ؛ فلما تدبرتُه علمتُ أن الناس كلَّهم لم يستووا في استحسانه فقط، ولا في طلبه فقط؛ ولٰكنْ رأيتهم ـ على اختلافِ أهوائهم ومطالبهم وتبايُنِ[1] هِممهم وإراداتِهم ـ لا يتحرَّكون حركةً أصلًا إلا فيما يَرْجُون به طردَ الهم، ولا ينطِقون بكلمةٍ أصلًا إلَّا فيما يعانُون به إزاحته عن أنفسهم؛ فمِن مخطئٍ وجه سبيله، ومن مقارِبٍ للخطأ، ومن مصيبٍ؛ وهو الأقلُّ مِن الناس في الأقل من أموره. واللَّهُ أعلم.

فطردُ الهمِّ مذهبٌ قد اتفقت الأممُ كلُّها ـ مُذ خَلَق اللَّهُ تعالى العالَم إلى أن يتناهى عالَمُ الابتداء ويَعقُبُه عالَمُ الحساب ـ على ألَّا يعتمدوا بسَعيهم شيئًا سواه، وكلُّ غرضٍ غيرِه ففي الناس مَن لا يستحسنه:

ـ إذ في الناس مَن لا دينَ له؛ فلا يعمل للآخرة.

ـ وفي الناس مِن أهل الشر مَن لا يريد الخيرَ ولا الأمنَ ولا الحق.

ـ وفي الناس من يؤثِرُ الخمولَ بهواه وإرادتِه على بُعد الصِّيت[2].

ـ وفي الناس مَن لا يريدُ المال، ويُؤثِرُ عدمَه على وجودِه؛ ككثير من الأنبياء عليهم السلام ومَن تلاهم من الزهَّاد والفلاسفة.

ـ وفي الناس مَن يُبغض اللذات بطبعِه، ويستنقص طالبَها؛ كمن ذكرنا مِن المؤثِرينَ فَقْدَ المال على اقتنائه.

ـ وفي الناس مَن يؤثِرُ الجهلَ على العِلم؛ كأكثر مَن ترى من العامة.

وهٰذه هي أغراضُ الناس ـ التي لا غرض لهم سواها ـ ، وليس في العالَم

---

(١) تباين: اختلاف.

(٢) الصِّيت: الشهرة.

ـ مذ كان إلى أن يتناهى ـ أحدٌ يَستحسنُ الهمَّ، ولا يريدُ طرده عن نفسه.

فلما استقرَّ في نفسي هٰذا العِلمُ الرفيع، وانكشف لي هٰذا السرُّ العجيب، وأنار اللَّهُ تعالى لفكري هٰذا الْكنزَ العظيم؛ بحثتُ عن سبيلٍ موصِّلةٍ على الحقيقةِ إلى طرد الهمِّ الذي هو المطلوب للنفس؛ الذي اتفق جميعُ أنواع الإنسان ـ الجاهل منهم والعالِم، والصالح والطالح ـ على السعي له: فلم أجدها إلَّا التوجُّهَ إلى اللَّه ﷻ بالعمل للآخرة؛ وإلَّا فإنما طَلَبَ المالَ طُلَّابُه ليطرُدوا به همَّ الفقر عن أنفسهم، وإنما طَلَبَ الصوتَ[1] مَن طلبه ليطرُدَ به عن نفسه همَّ الاستعلاء عليها، وإنما طَلَبَ اللذاتِ مَن طلبها ليطردَ بها عن نفسه همَّ فوتِها، وإنما طلب العِلمَ من طلبه ليطردَ به عن نفسه همَّ الجهل[2]، وإنما هَشَّ[3] إلى سماع الأخبار ومحادثةِ الناس من يطلبُ ذٰلك ليطرُدَ بها عن نفسه همَّ التوحُّد[4] ومَغيبِ أحوالِ العالَمِ عنه، وإنما أَكَلَ مَن أكل، وشَرِب مَن شرِب، ونكح مَن نكح، ولَبِس مَن لبس، ولعب مَن لعب، واكتَنز[5] من اكتنز، ورَكِب مَن ركب، ومَشى من مشى، وتَودَّع[6] مَن تودَّع: ليطردوا عن أنفسهم أضدادَ هٰذه الأفعال وسائرَ الهموم.

وفي كلِّ ما ذكرنا لمن تدبَّره هُمومٌ حادثةٌ ـ لابدَّ لها ـ من عوارضَ تَعرِضُ في خلالها، وتَعَذُّرِ ما يتعذَّرُ منها، وذهابِ ما يوجدُ منها، والعجزِ عنه لبعض الآفات الكائنة[7]، وأيضًا نتائجُ سُوءٍ تنتُجُ بالحصول على ما حصل عليه من

---

(١) الصوت: الصِّيت والشهرة.

(٢) وهٰذا ليس ممنوعًا شرعًا في الأصل.

(٣) هَشَّ: فرح.

(٤) التوحُّد: الوحشة.

(٥) في بعض المطبوعات: اكتنَّ ـ أي: اختفى ـ، ولها وجهٌ.

(٦) التودُّع: السكونُ والراحة. كذا في «تاج العروس».

(٧) أي: وفي كل تلك المشتهَيات السابقِ ذِكرُها عوارضُ تَعرِضُ لها تنغِّصُها وتكدِّرُ لذتها.

كلِّ ذلك؛ مِن خوفِ منافِس، أو طعنِ حاسد، أو اختلاسِ راغب[1]، أو اقتناءِ عدوٍّ؛ مع الذم والإثم وغير ذلك.

ووجدتُ العمل للآخرة سالمًا من كل عيب، خالصًا من كلِّ كَدَر، موصِّلًا إلى طردِ الهمِّ على الحقيقة. ووجدتُ العامل للآخرة إنِ امتُحن بمكروهٍ في تلك السبيل لم يهتمَّ؛ بل يُسَرُّ؛ إذ رجاؤه في عاقبةِ ما ينال منه عونٌ له على ما يطلب، وزائدٌ في الغرض الذي إياه يقصد، ووجدته إن عاقه عما هو بسبيله عائقٌ لم يهتمَّ؛ إذ ليس مؤاخذًا بذلك؛ فهو غيرُ مُؤثِرٍ فيما يطلب، ورأيتُه إن قُصِد بالأذى سُرَّ، وإن نكبته نكبةٌ سُرَّ، وإن تَعِب فيما سلك فيه سُرَّ؛ فهو في سرورٍ متصل أبدًا، وغيرُه بخلاف ذلك أبدًا.

فاعلم أنه مطلوبٌ واحدٌ؛ وهو طردُ الهمِّ، وليس إليه إلا طريقٌ واحد؛ وهو: العملُ للّه تعالى؛ فما عدا هذا فضلالٌ وسُخْف.

[فصل: لا تَبِعْ نفسَك برُخْص]

لا تبذُلْ نفسَك إلَّا فيما هو أعلى منها، وليس ذلك إلَّا في ذات اللّه ﷻ في دعاءٍ إلى حقٍّ، وفي حِماية الحريم، وفي دفع هوانٍ لم يوجِبْه عليك خالقُك تعالى، وفي نصر مظلوم.

وباذلُ نفسه في عَرَض دنيا كبائعِ الياقوت بالحصى.

[فصل: فاقد المروءة]

لا مروءةَ لمن لا دينَ له.

[فصل: العاقل حقًّا]

العاقلُ لا يرى لنفسه ثمنًا إلا الجنة.

---

(١) اختلاس راغب: أخذُ مُنافسٍ ما عند منافسِه.

[فصل: مِن فخوخ الشيطان في الرياء]

لإبليسَ في ذم الرياء حُبالةٌ[(١)]؛ وذٰلك أنه رُبَّ ممتنِعٍ من فعل خيرٍ خوفَ أن يُظنَّ به الرياء[(٢)]! فإذا طَرَقك منه هٰذا فامض على فِعلك؛ فهو شديد الألَم عليه.

[فصل: مِن أعظم أبواب العقل والراحة]

بابٌ عظيمٌ من أبواب العقل والراحة، وهو طرحُ المبالاة بكلام الناس، واستعمالُ المبالاة بكلام الخالق ﷻ؛ بل هو بابُ العقل كلِّه والراحةِ كلِّها.

مَن قدَّر أنه يَسلَمُ مِن طعن الناس وعَيبهم فهو مجنون.

مَن حقَّق النظر وراضَ نفسَه[(٣)] على السكون إلى الحقائق ـ وإن آلمتها في أول صدمة ـ كان اغتباطُه[(٤)] بذمِّ الناس إياه أشدَّ وأكثرَ من اغتباطه بمدحهم إياه؛ لأنَّ مَدْحهم إياه:

ـ إن كان بحقٍّ ـ وبَلَغَه مدحُهم له ـ : أَسرَى[(٥)] ذٰلك فيه العُجْبَ؛ فأفسد بذٰلك فضائله.

ـ وإن كان بباطل فبَلَغَه فسَرَّه، فقد صار مسرورًا بالكذب، وهٰذا نقصٌ شديد.

وأما ذمُّ الناس إياه:

ـ فإن كان بحقٍّ فبَلَغه، فربما كان ذٰلك سببًا إلى تجنُّبه ما يُعاب عليه، وهٰذا

---

(١) الحُبالة: الفخ.

(٢) فالعبد إذا أقبل على عمل صالح، ووَسوس له الشيطانُ أنه مراءٍ، فعليه أن يستعين بربِّه تعالى، وأن يستعيذ به من شر عدوِّه، وليقبل على العمل ولا يتركه أبدًا؛ لأن وسوسة الشيطان لا حِيلةَ في دفعها.

(٣) راض نفسه: أدَّبها.

(٤) اغتباطه: سعادته.

(٥) أسرى: أدخل؛ من «السَّرَيان».

حظٌّ عظيمٌ لا يَزهدُ فيه إلَّا ناقص.

ـ وإن كان بباطل، وبَلَغه فصَبَر، اكتسب فضلًا زائدًا بالحِلم والصبر، وكان مع ذٰلك غانمًا؛ لأنه يأخذ حسناتِ مَن ذمه بالباطل، فيحظى بها في دار الجزاء أحوجَ ما يكون إلى النجاة بأعمالٍ لم يَتعب فيها ولا تكلَّفها، وهٰذا حظٌّ عظيمٌ لا يزهد فيه إلَّا مجنون.

وأما إن لم يبلُغْه مدحُ الناس إياه، فكلامُهم وسكوتُهم سواء، وليس كذٰلك ذمُّهم إياه؛ لأنه غانمٌ للأجر على كل حال؛ بَلَغه ذمُّهم، أو لم يبلغه.

ولولا قولُ رسول اللَّه ﷺ ـ في الثناء الحسن ـ : «ذٰلكَ عاجِلُ بُشرى المُؤمن»[1]: لوجب أن يرغبَ العاقلُ في الذم بالباطل أكثرَ من رغبته في المدح بالحق، ولٰكن ـ إذ جاء هٰذا القولُ ـ فإنما تكون البُشرى بالحق لا بالباطل؛ فإنما تجب البُشرى بما في المدح ـ لا بنفس المدح[2] ـ.

[فصل: الفضائل والرذائل]

ليس بين الفضائل والرذائل، ولا بين الطاعات والمعاصي: إلا نِفارُ[3] النفس وأُنسُها فقط؛ فالسعيدُ مَن أَنِسَتْ نفسُه بالفضائل والطاعات، ونفرت منَ الرذائل والمعاصي، والشقيُّ مَن أنِست نفسُه بالرذائل والمعاصي، ونفرت منَ الفضائل والطاعات، وليس هاهنا إلا صُنعُ اللَّه تعالى وحفظُه.

[فصل: طالب الآخرة متشبِّهٌ بالملائكة]

طالبُ الآخرة ليفوزَ في الآخرة متشبِّهٌ بالملائكة، وطالبُ الشر متشبهٌ

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٥/ ١٥٦)، ومسلم (٢٦٤٢)، وابن ماجة (٤٢٢٥)، وابن حبان (٣٦٧).

(٢) أي: إنما تكون البُشرى بالعمل الصالح الذي صدر منَ الممدوح؛ وليس بالمدح نفسه.

(٣) النِّفار: النفور.

بالشياطين، وطالبُ الصوتِ والغَلَبة متشبِّهٌ بالسِّباع، وطالبُ اللذات متشبهٌ بالبهائم، وطالبُ المالِ لعينِ المال ـ لا لينفقَه في الواجبات والنوافل المحمودة ـ أسقطُ وأرذلُ مِن أن يكون له في شيءٍ من الحيوان شبهٌ! ولٰكنَّه يشبهُ الغُدرانَ[1] التي في الكهوف في المواضع الوَعْرة؛ لا يَنتفع بها شيءٌ من الحيوان إلا ما قلَّ من الطائر، ثم تُجفِّفُ الشمسُ والريحُ ما بقي منها؛ كذٰلك المالُ الذي لا يُنفقُ في المعروف.

فالعاقلُ لا يغتبطُ بصفةٍ يفوقُه فيها سبُعٌ أو بَهيمةٌ أو جَماد، وإنما يغتبطُ بتقدُّمِه في الفضيلة التي أبانه[2] اللَّهُ تعالى بها عن السِّباع والبهائم والجمادات، وهي التمييزُ الذي يشاركُ فيه الملائكة.

ـ فمن سُرَّ بشجاعته التي يضعُها في غير موضعها للَّه ﷻ؛ فلْيَعلم أن النمِرَ أجرأُ منه، وأن الأَسَد والذئبَ والفيل أشجعُ منه.

ـ ومَن سُرَّ بقوةِ جِسمه فلْيعلم أن البغلَ والثورَ والفيل أقوى منه جسمًا.

ـ ومَن سُرَّ بحَمله الأثقالَ؛ فلْيَعلم أن الحمارَ أحْملُ منه.

ـ ومَن سُرَّ بسُرعة عَدْوِه؛ فلْيَعلم أن الكلبَ والأرنب أسرعُ عدْوًا منه.

ـ ومَن سُرَّ بحُسنِ صوته؛ فليعلم أن كثيرًا منَ الطير أحسنُ صوتًا منه، وأن أصواتَ المزامير ألذُّ وأطربُ من صوته.

فأيُّ فخرٍ وأيُّ سرورٍ فيما تكونُ فيه هٰذه البهائمُ متقدمةً عليه؟! لٰكن من قَوِيَ تمييزُه، واتسع عِلمُه، وحسُن عملُه؛ فلْيغتبط بذٰلك[3]؛ فإنه لا يتقدمُه في هٰذه الوجوه إلَّا الملائكةُ وخِيارُ الناس.

---

(١) الغُدْران: جمع «غدير».

(٢) أبانه: جعله مخالفًا ومتميزًا.

(٣) أي: بالسعي للآخرة.

[فصل: آيتانِ جامعتانِ لكلٍّ فضيلة]

قولُ اللَّه تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات] جامعٌ لكل فضيلة؛ لأن نَهْيَ النفسِ عن الهوى هو ردعُها عن الطبع الغَضَبِيِّ وعن الطبع الشَّهْواني؛ لأن كليهما واقعٌ تحت موجَب الهوى؛ فلم يبقَ إلا استعمالُ النفس للنطق الموضوع فيها الذي به بانت عن البهائم والحشراتِ والسباع[١].

[فصل: حديثانِ جامعانِ للخير]

قولُ رسول اللَّه ﷺ ـ للذي استوصاه ـ: «لا تَغضبْ»[٢]، وأمرُه عَلَيْهِ السَّلَامُ «أنْ يُحِبَّ المَرءُ لِغيرِهِ ما يُحِبُّ لِنفسِه»[٣] جامعانِ لكل فضيلة؛ لأن في نَهيِهِ عن الغضب ردعُ النفس ذاتِ القوةِ الغضبية عن هواها، وفي أمره عَلَيْهِ السَّلَامُ بأن يحبَّ المرءُ لغيره ما يحبُّ لنفسه ردعُ النفوس عن القوة الشهوانية، وجَمعٌ لأَزِمَّةِ العدل؛ الذي هو فائدةُ النطقِ الموضوع في النفسِ الناطقة.

[فصل: أكثر الناس يتعجَّلون الشقاء]

رأيتُ أكثرَ الناس ـ إلَّا مَن عَصَم اللَّهُ تعالى؛ وقليلٌ ما هم ـ يتعجَّلون الشقاءَ والهمَّ والتعب لأنفسهم في الدنيا، ويَحتقِبون[٤] عظيمَ الإثم الموجِبِ للنار في الآخرة بما لا يَحظَون معه بنفعٍ أصلًا؛ من نياتٍ خبيثةٍ يضبُّون

(١) لعلَّ المصنِّفَ إنما يقصدُ أن العبد عليه أن ينطقَ بالحق دومًا؛ فبهذا يصيرُ كريمًا عند ربِّه تبارك وتعالى، واللَّهُ أعلم. وانظر ما بعده.

(٢) صحيح: رواه أحمد (٢/ ٣٦٢)، والبخاري (٦١١٦)، والترمذي (٢٠٢٠).

(٣) صحيح: رواه أحمد (٣/ ١٧٦)، والبخاري (١٣)، ومسلم (٤٥)، والترمذي (٢٥١٥)، والنسائي (٥٠١٦)، وابن ماجه (٦٦).

(٤) يَحتقبون: يجمعون ويحملون.

عليها[١]؛ من تمني الغلاءِ المُهلك للناس وللصِّغار ومَن لا ذنب له، وتمنِّي أشدِّ البلاء لمن يكرهونه؛ وقد علموا يقينًا أن تلك النياتِ الفاسدةَ لا تُعجِّلُ لهم شيئًا مما يتمنَّونه أو يوجبُ كونه، وأنهم لو صَفَّوا نيَّاتِهم وحسَّنوها لتعجَّلوا الراحة لأنفسهم، وتفرَّغوا بذٰلك لمصالح أمورهم، ولاقتنَوا[٢] بذٰلك عظيمَ الأجر في المعاد؛ من غير أن يؤخِّرَ ذٰلك شيئًا مما يريدونه أو يمنعُ كونه.

فأيُّ غبنٍ أعظمُ من هٰذه الحال التي نبَّهْنا عليها؟! وأيُّ سعدٍ أعظمُ من التي دعَوْنا إليها؟!.

[فصل: حقيقة الدنيا]

إذا حققتَ مدة الدنيا لم تجدها إلَّا الآن ـ الذي هو فصلُ الزمانين فقط ـ؛ وأما ما مضى وما لم يأتِ فمعدومان ـ كما لم يكن ـ؛ فمن أضلُّ ممن يبيعُ باقيًا خالدًا بمدةٍ هي أقلُّ مِن كَرِّ الطرْف؟!.

[فصل: من حِكَم النوم]

إذا نام المرءُ خرج عن الدنيا، ونَسي كلَّ سرورٍ وكلَّ حزن؛ فلو رتَّب[٣] نفسه في يقظته على ذٰلك ـ أيضًا ـ لسعد السعادة التامة.

[فصل: أسقطُ الناس منزلةً]

مَن أساء إلى أهله وجيرانه[٤] فهو أسقطُهم، ومَن كافأ مَن أساء إليه منهم فهو مثلُهم، ومن لم يكافئهم بإساءتِهم فهو سيدُهم، وخيرُهم، وأفضلُهم.

❁ ❁ ❁

(١) يضبُّون: يحقدون.

(٢) اقتنوا: حصَّلوا وجَمعوا.

(٣) رتَّب: التزم.

(٤) أي: بلا ذنب جَنَوه في حقه.

فصل: في العلم

[هيبةُ العالِمِ وإجلالُه]

لو لم يكن مِن فضل العلم إلَّا أن الجُهَّالَ يهابونَك ويُجِلُّونك، وأن العلماءَ يُحبُّونك ويُكرمونك: لكان ذٰلك سببًا إلى وجوب طلبه؛ فكيف بسائر فضائله في الدنيا والآخرة! ولو لم يكن مِن نقص الجهل إلَّا أن صاحبه يَحسُدُ العلماء ويغبطُ نظراءَه من الجهَّال: لكان ذٰلك سببًا إلى وجوب الفرار عنه؛ فكيف بسائر رذائله في الدنيا والآخرة!.

[فصل: من فضائل العلم: الاشتغالُ عن الوساوس]

لو لم يكن من فائدةِ العلم والاشتغالِ به إلا أنه يقطع المشتغلَ به عن الوساوس المُضنية، ومطارحِ الآمال[1] التي لا تفيدُ غيرَ الهمِّ، وكفايةِ الأفكار المؤلمةِ للنفس: لكان ذٰلك أعظمَ داعٍ إليه؛ فكيف وله من الفضائل ما يطولُ ذكره! ومِن أقلِّها ما ذكرنا مما يَحصُلُ عليه طالب العلم، وفي مِثله أتعَبَ ضعفاءُ الملوك أنفسهم؛ فتشاغلوا عما ذكرنا بالشِّطْرِنْجِ والنَّرْدِ والخَمر والأغاني ورَكْضِ الدوابِّ في طلب الصيد وسائر الفضول التي تعود بالمضرَّة في الدنيا والآخرة، وأما فائدة؛ فلا فائدة.

[فصل: العلم يكفيك تسلُّطَ الجهال]

لو تدبَّر العالِمُ ـ في مرور ساعاته ـ ماذا كفاه العلمُ من الذلِّ بتسلُّط الجهال[2]، ومن الهمِّ بمَغيب الحقائق عنه، ومن الغِبطة بما قد بان له وجهُه من الأمور الخفية عن غيره: لزاد حَمْدًا للّٰه ﷻ وغبطةً بما لديه من العلم،

(١) أي: الآمال العريضة التي لا ينالها غالبًا.

(٢) التسلط: أن يكون لهم عليك سلطة.

ورغبةً في المزيد منه.

[فصل: من الحُمق إهمال أعلى العلوم]

مَن شغل نفسه بأدنى العلوم وترك أعلاها ـ وهو قادرٌ عليه ـ؛ كان كزارع الذُّرة في الأرض التي يجودُ فيها البُرُّ[1]، وكغارس الشَّعراء[2] حيث يزكو النخلُ والزيتون.

[فصل: لا تنشرِ العلمَ عند غير أهله]

نشرُ العلم عندَ مَن ليس من أهلِه مفسدٌ لهم؛ كإطعامك العسلَ والحَلواء مَن به احتراقٌ وحُمَّى، أوكشَمِيمِكَ[3] المسكَ والعنبرَ لمن به صداعٌ من احتدام الصفراء.

[فصل: ألأَمُ الناس]

الباخلُ بالعلم ألأمُ منَ الباخل بالمال؛ لأن الباخلَ بالمال أشفَقَ من فَناء ما بيده، والباخلُ بالعلم بَخِل بما لا يَفنى على النفقة، ولا يفارقه مع البذل.

[فصل: اشتغل بما مال قلبُك إليه]

مَن مال بطبعه إلى علمٍ ما ـ وإن كان أدنى من غيره ـ فلا يشغَلْها بسواه؛ فيكونَ كغارس النارجيل بالأندلس، وكغارس الزيتون بالهند، وكلُّ ذلك لا يُنجِب.

[فصل: أجلُّ العلوم]

أجلُّ العلوم ما قرَّبك من خالقك تعالى، وما أعانك على الوصول إلى رضاه.

---

(١) البُر: القمح.
(٢) الشعراء: لعلها الشعير.
(٣) الشَّميم: الشم.

[فصل: النظرة الصحيحة]

انظر في المال والحال والصحة إلى مَن دونَك، وانظر في الدين والعلم والفضائل إلى من فوقَك.

[فصل: العلومُ الغامضة]

العلومُ الغامضةُ كالدواء القوي؛ يُصلِحُ الأجسادَ القوية، ويُهلِكُ الأجسادَ الضعيفة؛ وكذلك العلومُ الغامضة؛ تزيدُ العقل القويَّ جودةً وتصفيةً مِن كل آفة، وتُهلِكُ ذا العقل الضعيف.

[فصل: العقل والجنون]

منَ الغَوص على الجنون: ما لو غاصه صاحبُه على العقل؛ لكان أحكمَ من الحسن البصري وأفلاطون الأثيني وبُزُرْجَمِهْرَ الفارسي[(١)].

[فصل: لا ينفع العقلُ بغير توفيقٍ من الله ﷻ]

وقف العقلُ عند أنه: لا ينفع إن لم يؤيَّد بتوفيق في الدين، أو بسَعدٍ في الدنيا.

[فصل: لا تُخاطِرْ بنفسك]

لا تضرَّ بنفسك في أن تجرِّبَ بها الآراء الفاسدة لتُرِيَ المشيرَ بها فسادَها فتهلِك[(٢)]؛ فإن ملامةَ ذي الرأي الفاسدِ لك على مخالفته ـ وأنت ناجٍ من

---

(١) أي: هناك أمورٌ خطيرةٌ قد يدفع الجنونُ إلى اقتحامِها ـ كالقتال ـ، فكذٰلك هٰذه الأمور لو اقتحمها العبدُ من مُنطلق العقل والدين، لكان أحكمَ من جميع الحكماء، واللهُ أعلم.

(٢) أي: لا توقِعْ نفسك في العلوم الفاسدة لتُقنعَ المنغمسَ فيها بفسادها؛ فلعلك تسقط في فخِّها، فلا تستطيع الخروج منها فتضل.

المكاره ـ خيرٌ لك من أن يَعذِرَك ويندمَ كلاكما، وأنت قد حصلت في مكاره[١].

[فصل: لا تُسعِدِ الآخرينَ بفسادِ دينك]

إياكَ وأن تسُرَّ غيرَكَ بما تسوءُ به نفسَك؛ فيما لم توجِبْه عليك شريعةٌ أو فضيلة[٢].

[فصل: عَجزُ العلم]

وقف العلمُ عند الجهل بصفاتِ الباري ﷻ[٣].

[فصل: تعالُم الجُهال إفسادٌ للدين والدنيا]

لا آفةَ على العلوم وأهلِها أضرُّ من الدخلاء فيها وهم من غير أهلها؛ فإنهم يجهلون ويظنُّون أنهم يعلمون، ويُفسدون ويُقدِّرُون أنهم يصلحون.

---

(١) أي: فإن صاحبَ الرأي الفاسد لو لامك على مخالفتِك له ـ لرفضك لرأيه ـ، فهو أولى لك وأشرفُ من أن تسعى لإقناعه بصحةِ منهجك ـ إذا انغمست في الآراءِ الفاسدة لتعرفها ـ، فتَضلَّ مثله؛ فتكون قد وقعتَ في المكاره.

(٢) وأكثرُ مَن تنطبق عليه هٰذه الفتنةُ الأزواجُ الذين زعموا الالتزام والتدين، ثم تزوَّجوا من المنحرفين؛ فإنك عما قريب ترى زاعمي الالتزام يَبيعون دينهم، ويتنازلون عن رضا ربِّهم، ويَسقطون في أوحال المعاصي لرضا أزواجهم؛ فتكون العاقبةُ سخط اللّٰه على البيت ومن فيه، وراجع ـ متفضِّلًا ـ التفاصيل في كتابي: «اختيار الزوجين بين الضوابط الشرعية وأهواء النفوس البشرية».

(٣) هٰذه الكلمة فيها تفصيل؛ فإن كان المقصودُ أن العبد لا يَعلم «كيفية» صفات ربِّه، فالكلام صحيح، أما إن كان المقصودُ أنه لا يعلم «معاني» صفاته ﷻ فهٰذا خطأ؛ وإلا كان لازمه: أن اللّٰهَ تعالى خاطب عباده ـ خاصةً في باب صفاته ـ بما لا يعرفون! وترى كثيرًا من نقد مثل هٰذه العبارة في تعليقاتي على «إحياء علوم الدين» للغزَّالي ـ غفر اللّٰهُ له ـ؛ خاصةً كتاب «قواعد العقائد».

[فصل: الاقتداء بالحبيب ﷺ أصلُ الفلاح]

مَن أراد خيرَ الآخرة، وحكمةَ الدنيا، وعَدْلَ السِّيرة، والاحتواءَ على محاسن الأخلاق كلِّها، واستحقاقَ الفضائل بأسرها: فلْيقتدِ بمحمدٍ رسولِ اللَّه ﷺ، ولْيستعمل أخلاقَه وسِيَـرَه ما أمكنه؛ أعاننا اللَّه على الائتساء به بمنِّه؛ آمين.

[فصل: مِن مصائب أهل الجهل]

غاظني أهلُ الجهل مرتين من عمري:

أحدهما: بكلامهم فيما لا يُحسنونه أيام جهلي[١].

والثاني: بسكوتِهم عن الكلام بحضرتي أيام علمي.

فهم أبدًا ساكتون عما ينفعُهم؛ ناطقون فيما يضرُّهم.

وسرَّني أهلُ العلم مرتين من عمري:

أحدهما: بتعليمي أيام جهلي.

والثاني: بمذاكرتي أيام علمي.

[فصل: من فضائل العلم والزُّهد]

مِن فضل العلم والزهد في الدنيا: أنهما لا يؤتيهما اللَّه ﷻ إلَّا أهلهما ومستحقَّهما، ومِن نقصِ علوِّ أحوال الدنيا ـ من المال والصوت ـ: أن أكثر ما يقعان في غير أهلهما وفيمن لا يستحقُّهما.

[فصل: من طلب الفضائل فلْيُصاحب أهلها]

مَن طلب الفضائل لم يسايِرْ إلا أهلها، ولم يرافق في تلك الطريقِ إلا أكرمَ

---

(١) لأنه حينئذٍ لا يستطيع الرد على جهلهم.

صديق مِن أهل المواساةِ والبِرِّ والصدق وكَرَم العشيرة والصبرِ والوفاءِ والأمانةِ والحِلمِ وصفاءِ الضمائر وصحةِ المودَّة.

ومن طلب الجاه والمال واللذات: لم يُساير إلا أمثالَ الكلاب الكَلِبة[١] والثعالب الخَلِبة[٢]، ولم يرافق في تلك الطريق إلا كلَّ عدوٍّ المعتقد، خبيثِ الطبيعة.

[فصل: العلمُ النافع]

منفعةُ العلم في استعمال الفضائل عظيمة، وهو أنه يعلمُ حُسنَ الفضائل فيأتيها ـ ولو في النُّدْرة ـ ، ويعلمُ قُبحَ الرذائل فيجتنبها ـ ولو في الندرة ـ ، ويسمعُ الثناءَ الحسن فيرغبُ في مثله، والثناءَ الرديءَ فينفِرُ منه.

فعلى هٰذه المقدمات يجبُ أن يكون للعلم حصةٌ في كل فضيلة، وللجهل حصةٌ في كل رذيلة، ولا يأتي الفضائلَ ـ ممن لم يتعلمِ العلمَ ـ إلا صافي الطبع جدًّا؛ فاضلُ التركيب، وهٰذه منزلةٌ خُص بها النبيون ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ؛ لأن اللّٰه تعالى علَّمهم الخيرَ كلَّه دون أن يتعلموه من الناس، وقد رأيتُ مِن غِمار العامة[٣] مَن يجري منَ الاعتدال وحَميد الأخلاق إلى ما لا يتقدمُه فيه حكيمٌ عالِمٌ رائضٌ لنفسه؛ ولٰكنه قليلٌ جدًّا، ورأيتُ ممن طالع العلوم وعرفَ عهود الأنبياء عليهم السلام[٤] ووصايا الحكماء، وهو لا يتقدمُه في خُبث السيرةِ وفسادِ العلانية والسريرةِ شِرارُ الخلق! وهٰذا كثير جدًّا؛ فعلمتُ أنها مواهبُ وحرمانٌ من اللّٰه تعالى.

❁ ❁ ❁

(١) الكَلِبة: المسعورة الشرسة.
(٢) الخَلِبة: الخدَّاعة، أو المفترسة.
(٣) غِمار العامة: جهلائهم.
(٤) عهود الأنبياء: شرائعهم.

فصل: في الأخلاق والسِّيَر

[احرِصْ على سلامةِ جانبك]

احرِصْ على أن توصفَ بسلامةِ الجانب، وتحفَّظْ من أن توصفَ بالدهاء فيَكثُرَ المتحفِّظون منك؛ حتى ربما أضرَّ ذٰلك بك، وربما قتلك.

[فصل: وطِّنْ نفسك على مُلاقاة المَكارِه]

وطِّن نفسك على ما تكره يَقِلَّ هَمُّك إذا أتاك، ولا تستضرُّ بتوطينك أولًا، ويعظُمُ سرورُك ويتضاعف إذا أتاك ما تحبُّ مما لم تكن قدَّرتَه.

[فصل: يأتي الفرَجُ بعد الشدة]

إذا تكاثرتِ الهمومُ سقطت كلُّها[١].

[فصل: الغادر والوفيُّ]

الغادرُ يفي للمجدود[٢]، والوفِيُّ يَغدرُ بالمحدود[٣]، والسعيدُ ـ كلُّ السعيد ـ في دنياه: من لم يضطرَّه الزمانُ إلى اختبار الإخوان[٤].

[فصل: لا تفكِّرْ في عدوِّك]

لا تفكِّرْ فيمن يؤذيك؛ فإنك إن كنت مُقبلًا فهو هالكٌ وسَعدُك

(١) أي: كلما اشتدت الهمومُ جاء بعدها الفرج، فضاعت كلُّها، واللّٰهُ أعلم.
(٢) أي: الغادر يكون وفيًّا مع الغنيِّ الذي يجد عنده بُغيته. واللّٰهُ أعلم.
(٣) أي: الوفي ـ ظاهرًا ـ قد يغدر بمن لا يجد عنده بغيتَه؛ لكونه محدودَ المال والجاه. واللّٰهُ أعلم. لٰكنه في هٰذه الحالةِ لن يكون وفيًّا حقًّا.
(٤) نعم ـ واللّٰهِ ـ ؛ فكثيرًا ما تكشف محنُ الزمان عن أخلاق ما كنَّا نظنُّها في بعض من ظنناهم أوفياء.

يكفيك[١]، وإن كنت مُدبِرًا فكلُّ أحدٍ يؤذيك.

[فصل: هنيئًا لِمن عَرف عيوبَه]

طوبى لمن عَلِم من عيوب نفسه أكثرَ مما يعلمُ الناسُ منها.

[فصل: اقسامُ الصبر على الجفاء]

الصبرُ على الجفاء ينقسم ثلاثة أقسام:

١ ـ فصبرٌ عمن يقدرُ عليك، ولا تقدر عليه.

٢ ـ وصبر عمن تقدرُ عليه، ولا يقدر عليك.

٣ ـ وصبرٌ عمن لا تقدرُ عليه، ولا يقدر عليك.

فالأول: ذلٌّ ومهانة، وليس من الفضائل، والرأيُ لمن خَشِيَ ما هو أشدُّ مما يصبر عليه: المتاركةُ والمباعدة.

والثاني: فضلٌ وبِرٌّ ـ وهو الحِلمُ على الحقيقة ـ ، وهو الذي يوصفُ به الفضلاء.

والثالث: ينقسم قسمين:

ـ إما أن يكون الجفاءُ ممن لم يقع منه إلَّا على سبيل الغلط والوهْلة[٢]، ويَعلمُ قُبحَ ما أتى به، ويندمُ عليه: فالصبر عليه فضلٌ وفرض، وهو حلمٌ على الحقيقة.

ـ وأما مَن كان لا يدري مقدارَ نفسه، ويظنُّ أن لها حقًّا يستطيلُ به[٣] ـ فلا يندمُ على ما سلف منه ـ ، فالصبر عليه ذلٌّ للصابر، وإفسادٌ للمصبور عليه؛

(١) أي: لأنك بإقبالِك على الله تعالى لن تَهتمَّ إلا بإرضائه ﷻ.

(٢) الوَهْلة: النسيان.

(٣) يستطيل: يتكبر ويتعالى.

لأنه يزيدُ استشراءً[١]، والمقارضةُ له[٢] سُخفٌ، والصوابُ إعلامُه بأنه كان ممكنًا أن ينتصر منه، وأنه إنما ترك ذٰلك استرذالًا له ـ فقط ـ، وصيانةً عن مراجعته، ولا يُزاد على ذٰلك.

وأما جفاء السِّفلة[٣] فليس جزاؤه إلَّا النكالُ وحدَه[٤].

[فصل: مَن أضرار مُجالسةِ الناس]

مَن جالس الناس لم يَعدِمْ هَمًّا يؤلِمُ نفسه، وإثمًا يَندم عليه في معاده[٥]، وغيظًا يُنضِجُ كبِدَه، وذلًّا يُنكِّسُ هِمَّته؛ فما الظن بعدُ بمَن خالطهم وداخلهم؟! والعزَّةُ والراحةُ والسرورُ والسلامةُ في الانفراد عنهم؛ ولٰكن اجعلهم كالنار؛ تَدفَّأْ بها ولا تخالِطْها.

[فصل: من أهمِّ عيوبِ مجالسةِ الناس]

لو لم يكن في مجالسة الناس إلا عيبانِ لكفيا:

أحدهما: الاسترسالُ عند الأُنس بالأسرار المُهلِكة القاتلة؛ التي لولا المجالسةُ لم يَبُحْ بها البائح.

والثاني: مواقعةُ الغَلَبة المُهلكةِ في الآخرة[٦].

---

(١) الاستشراء: الفساد والقبح.

(٢) المُقارضة: المقابلة بمثل فعله.

(٣) السِّفْلة: الرعاع الأراذل.

(٤) أي: إيقاعُ العقوبة بهم. لٰكن هٰذا له ضوابطُ في «فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»؛ وإلا زاد الفساد وعمَّ، وعلى رأس تلك الضوابط أن يكون المعاقِبُ آمنًا من ترتُّبِ مفاسدَ أعظم من تأديبه لهم.

(٥) كالغيبة ونحوها.

(٦) أي: محاولة مغالبتهم على أمور قد تجلبُ عقاب اللّٰهِ تعالى؛ مثل أخذِ مالٍ منهم بغير حق، أو الاعتداءِ على أعراضهم... ونحو هٰذا.

فلا سبيل إلى السلامـةِ مـن هاتيـن البليَّتيـن إلا بالانفراد عن المجالسة جُملةً[١].

[فصل: تعجَّل بالأعمال الصالحة]

لا تحقرنَّ شيئًا من عمل غدٍ أن تحقِّقه بأن تُعجِّلَه اليوم ـ وإن قل ـ؛ فإنَّ من قليل الأعمال يجتمعُ كثيرُها، وربما أعجَزَ أمرُها عند ذلك فيَبطُلُ الكل.

[فصل: لا تَحقِرْ عملاً صالحًا]

لا تَحقِرْ شيئًا مما ترجو به تثقيلَ ميزانك يوم البعث أن تُعجِّلَه الآن ـ وإن قلَّ ـ، فإنه يحطُّ عنك كثيرًا لو اجتمع لقذف بك في النار.

[فصل: من عجائب الأحوال]

الوجعُ والفقرُ والنكبةُ والخوفُ: لا يُحِسُّ أذاها إلا مَن كان فيها، ولا يعلمُه مَن كان خارجًا عنها. وفسادُ الرأي والعارُ والإثمُ لا يَعلمُ قبحَها إلَّا من كان خارجًا عنها، وليس يراه من كان داخلًا فيها.

[فصل: لا يَستشعرُ النِّعَمَ إلا مَن ضاعت منه]

الأمنُ والصحةُ والغِنى لا يَعرف حقَّها إلَّا من كان خارجًا عنها، وليس يعرفُ حقها مَن كان فيها. وجودةُ الرأي والفضائلِ وعملُ الآخرة لا يعرفُ فضلها إلا مَن كان من أهلها، ولا يعرفه من لم يكن مَن أهلها.

[فصل: عاقبةُ الخائن]

أولُ مَن يَزهَدُ في الغادر: مَن غَدَر له الغادر[٢]، وأولُ مَن يمقتُ شاهدُ

(١) اللهم إلا إذا كانت مجالستُهم فيها مصلحةٌ راجحة.
(٢) أي: أول من يكرهُ الغادر صاحبُه الذي غدرَ الغادرُ لأجله.

الزور: مَن شَهِد له به، وأولُ مَن تَهونُ الزانيةُ في عينه الذي يزني بها.

[فصل: العقول الفاسدة]

ما رأينا شيئًا فسد فعاد إلى صحته إلَّا بعد لَأْيٍ[١]؛ فكيف بدماغٍ يتوالى عليه فسادُ السُّكْرِ كلَّ ليلة؟ وإن عقلًا زَيَّن لصاحبه تعجيلَ إفسادِه كلَّ ليلةٍ: لَعقلٌ ينبغي أن يُتَّهم[٢].

[فصل: سُنةُ الحياة]

الطريق تُبرِّم[٣]، والرَّزايا تُكرِّم[٤]، وكثرةُ المال ترغِّب، وقِلَّتُه تُقنِع[٥].

[فصل: تدبير العاقل وتدبير الأحمق]

قد يُنحَسُ العاقلُ بتدبيره[٦]، ولا يجوز أن يَسعَدَ الأحمقُ بتدبيره.

[فصل: أضرُّ الناس على السلطان]

لا شيءَ أضرُّ على السلطان مِن كثرة المتفرِّغين حواليه؛ فالحازمُ يَشغلُهم بما لا يظلمهم فيه؛ فإن لم يفعل شَغلوه بما يظلمونه فيه. وأما مقرِّبُ أعدائه فذلك قاتلُ نفسه.

---

(١) اللأي: العناء والشدة.

(٢) للَّهِ درُّ الإمام على تلك الحِكم النفيسة! وانظروا - باللَّهِ عليكم - كم من عبدٍ يدعي الإسلام اليوم - بل قد يدَّعي الإصلاح والإرشاد - وعقله أفسد من الأرض الخراب.

(٣) أي: طُول الطريق تدعو إلى الملل؛ إلا مَن كان على الحق وأراد الحق.

(٤) في بعض المطبوعات: «الزوايا»، وفي البعض الآخر: «الزرايا»، ولعل الأصحَّ ما أثبته. والمقصود: أن تعرض الإنسان للمحن يرفعه عند ربِّه ويكرمه، واللَّهُ أعلم.

(٥) أي: كثرة المال ترغب في التعلق بالدنيا، وقلَّته تجعل العبد قانعًا.

(٦) أي: قد يدبر العاقلُ ويُحكِمُ أمره، ثم لا ينال مطلوبه.

[فصل: متى يهونُ العبدُ على الناس؟]

كثرةُ وقوعِ العين على الشخص يسهِّل أمرَه ويُهوِّنه[(١)].

[فصل: ستائرُ الجُهَّال]

التهويلُ[(٢)] بلزوم زيٍّ ما، والاكفهرارُ[(٣)]، وقلةُ الانبساط[(٤)]: ستائرُ جعلها الجهالُ ـ الذين مكَّنتهم الدنيا ـ أمامَ جهلهم[(٥)].

[فصل: لا تغترَّ بمن يصاحبك أيام الرَّخاء]

لا يغترَّ العاقلُ بصداقةٍ حادثةٍ له أيامَ دولته[(٦)]؛ فكلُّ أحدٍ صديقُه يومئذٍ.

[فصل: لا تستعِنْ في أمورك إلا بمَن كان على طريقك]

اجهَدْ في أن تستعينَ في أمورك بمن يريدُ منها لنفسه مثلَما تريدُ لنفسك، ولا تستعِنْ فيها بمَن حظُّه مِن غيرك كحظِّه منك[(٧)].

[فصل: إياك وقبولَ الوشاية]

لا تُجِبْ عن كلامٍ نُقل إليك عن قائلٍ حتى توقنَ أنه قاله؛ فإنَّ مَن نقل إليك كَذِبًا رجع من عندك بحقٍّ[(٨)].

(١) كما قيل: «أزهدُ الناس في العالِم أهلُه».
(٢) التهويل: التعظيم.
(٣) الاكفهرار: العبوس.
(٤) الانبساط: التبسُّم والملاطفة.
(٥) أي: ستائرُ وضعها الجُهَّالُ على وجوهِهم ليُدارُوا بها جهلهم وفساد رأيهم.
(٦) أي: أيام عِزِّه وغناه وسلطانه.
(٧) يقصد الذي هَمُّه أن ينتفعَ منك أو من غيرك على أي حالٍ كان. واللَّهُ أعلم.
(٨) أي: فإن مَن كذب عليك في وشايةٍ بأخيك، قد تغضبُ وتنفعل وتُخرج أسرارَ أخيك =

[فصل: لا ثقة بمن لا دِين له]

ثِقْ بالمتدين ـ وإن كان على غير دينك ـ، ولا تَثِقْ بالمستخفِّ وإن أظهر أنه على دينك[١]. [فـ]مَن استخف بحُرُمات اللّٰه تعالى، فلا تأمَنْه على شيءٍ مما تشفقُ عليه.

[فصل: مشاركةُ الأرواح هي الأصل]

وجدتُ المشاركين بأرواحِهم أكثرَ من المشاركين بأموالهم؛ هٰذا شيء طال اختباري إياه، ولم أجد قطُّ ـ على طول التجربة ـ سواه؛ فأعيتني معرفةُ العِلَّة في ذٰلك؛ حتى قدَّرتُ أنها طبيعةٌ في البشر.

[فصل: مِن أقبح الظلم]

مِن قبيح الظلم: الإنكارُ على مَن أكثر الإساءة إذا أحسن في النُّدرة[٢].

[فصل: مِن سُنن الحياة]

مَن استراح من عدوٍّ واحدٍ حدث له أعداءٌ كثيرة[٣].

= التي ائتمنك عليها، فيأخذ الواشي كلامَك وينقلُه إليه، فيكون كَذَب في إخبارك، وأخذ كلامك ـ الصادق ـ، وأفسَدَ به بينك وبين أخيك. واللّٰهُ أعلم. وانظر ص(٧٨).

(١) لأن مَن كان عنده بقايا من الدين الصحيح ـ دين إبراهيم ـ، فإنه يعدلُ معك بما عنده من مكارم الأخلاق. وإن كان الأصلُ في أهل الكفر الغدرَ والخسةَ وبغض المؤمنين. ولعل الإمام قصد بعضَ مَن رآهم على غير الإسلام ممن اتَّسموا بحسن المعاملة.

(٢) لأن مَن أكثر الإساءة وتمادى فيها لا ينفع معه الإنكار غالبًا. والواقع خير شاهد.

(٣) لعل الإمامَ يقصد أن من انتقم من عدوِّه ـ وإن كان محقًّا ـ اكتسب أعداءً كثيرين؛ لأن أغلب الناس لا يعذرون صاحب الحق، وخاصةً أهل الدين.
أو لعلَّه يقصد أن الدنيا الأصلُ فيها البلاء والتعب؛ فإن من استراح من عدوٍّ فلا يطمئن لها؛ فلعله تحدثُ له أعداءٌ كثيرون، واللّٰهُ أعلم.

[فصل: الدنيا كخيالِ الظل]

أشبهُ ما رأيتُ بالدنيا خيالُ الظل؛ وهي تماثيلُ مركبةٌ على مَطحنةِ خشبٍ، تُدار بسرعةٍ، فتغيب طائفةٌ وتبدو أخرى.

[فصل: من عجائب الموت]

طال تعجُّبي في الموت؛ وذٰلك أني صحبتُ أقوامًا صحبةَ الروح للجسد ـ مِن صدق المودَّة ـ ؛ فلما ماتوا رأيتُ بعضَهم في النوم، ولم أرَ بعضهم، وقد كنت عاهدتُ بعضهم في الحياة على التزاورِ في المنام بعد الموت ـ إن أمكن ذٰلك ـ ؛ فلم أره في النوم بعد أن تقدَّمني إلى دار الآخرة؛ فلا أدري: أنسي أم شُغِل؟.

[فصل: غفلة النفس]

غفلةُ النفس ونسيانُها ما كانت فيه في دار الابتلاء قبل حلولِها في الجسد: كغفلةِ مَن وقع في طين غُمِرَ [به][(١)] عن كلِّ ما عَهِد وعَرَف قبلَ ذلك، ثم أطلتُ الفكر ـ أيضًا ـ في ذلك؛ فلاح لي شِعبٌ[(٢)] زائدٌ من البيان؛ وهو أني رأيت النائم إذ هَمَّت نفسه بالتخلِّي من جسده، وقوي حسُّها حتى تشاهد الغيوب، قد نسيت ما كان فيه قُبيلَ نومها نسيانًا تامًّا البتة ـ على قرب عهدها به ـ ، وحدثت لها أحوالٌ أُخَر، وهي في كل ذٰلك ذاكرةٌ حساسةٌ متلذِّذةٌ آلِمة، ولذةُ النوم محسوسةٌ في حاله؛ لأن النائم يلتذُّ ويحتلمُ ويخافُ ويَحزنُ في حال نومه.

---

(١) أي: غطاه.

(٢) الشِّعب ـ بكسر الشين ـ : الطريق.

[فصل: أُنسُ الأرواح]

إنما تأنسُ النفسُ بالنفس؛ فأما الجسد فمستثقَلٌ مبرومٌ به[١]، ودليلُ ذٰلك استعجالُ المرء بدَفن جسدِ حبيبه ـ إذا فارقتـه نفْسُه ـ، وأسفُه لذهاب النفس ـ وإن كانت الجثةُ حاضرةً بين يديه ـ.

[فصل: من مصايد إبليس]

لم أر لإبليسَ أصيدَ ولا أقبحَ ولا أحمقَ من كلمتين ألقاهُما على ألسنةِ دعاته:

إحداهما: اعتذارُ مَن أساء بأن فلانًا أساء قبله[٢].

والثانية: استسهالُ الإنسان أن يسيءَ اليومَ لأنه قد أساء أمس، أو أن يسيءَ في وجهٍ ما لأنه قد أساء في غيره!.

فقد صارت هاتانِ الكلمتان عذرًا مُسهِّلتينِ للشر، ومُدخِلتَينِ له في حدٍّ ما يُعرف ويُحمل ولا يُنكر.

[فصل: استعمال الحذَر]

استعمِلْ سوءَ الظن حيث تَقدِرُ على توفيته حقَّه في التحفُّظ والتأهب[٣]، واستعمِلْ حُسنَ الظن حيث لا طاقةَ بك على التحفُّظ[٤]؛ فتربح راحة النفس.

[فصل: الجُودُ الحقيقي]

حدُّ الجود وغايته: أن يبذلَ الفضل[٥] كلَّه في وجوه البر، وأفضلُ ذٰلك في

---

(١) مبروم به: مملولٌ منه.

(٢) وهٰذا من مناهج أهل الضلال: أن يحتجُّوا على ضلالهم بضلال من قبلهم.

(٣) أي: اجعل سوء الظن ـ وهو شدةُ الحذر ـ في مكانه؛ بحيث يجعلك متنبِّهًا لما قد يُكاد لك.

(٤) لعل المقصود: أن تستعمل حُسنَ الظن حيث لم تجد أدنى شائبةٍ للريبة.

(٥) الفضل: ما زاد عن احتياجات النفس والأهل الضرورية.

الجار المحتاج، وذي الرحم الفقير، وذي النعمة الذاهبة[١]، والأحضرِ فاقةً.

ومنعُ الفضل مـن هٰـذه الوجـوه داخلٌ في البخـل، وعلى قِـدْر التقصير والتوسعِ في ذٰلك يكونُ المدحُ والذمُّ، وما وُضع في غير هٰذه الوجوه فهو تبذيرٌ، وهو مذموم.

وما بذلتَ من قُوْتِك لمن هو أمسُّ حاجةً منك؛ فهو فضلٌ وإيثار، وهو خيرٌ من الجود.

وما مُنع مِن هٰذا فهو لا حَمْدٌ ولا ذم، وهو انتصاف[٢].

[فصل: فروقٌ مهمَّة]

بذلُ الواجبات فرض، وبذلُ مـا فَضـل عـن القـوت جُود، والإيثارُ على النفس من القوت ـ بما لا تَهلِكُ على عدمه ـ فضل[٣]، ومنعُ الواجبات حرام، ومنع ما فَضَل عن القوت بخلٌ وشحٌّ، والمنعُ من الإيثار ببعض القوت عذرٌ، ومنعُ النفس أو الأهل القوتَ أو بعضه نتْنٌ ورذالةٌ ومعصية.

والسخاءُ بما ظلمتَ فيه أو أخذتَه بغير حقِّه ظلمٌ مكرر[٤]، والذمُّ جزاءُ ذٰلك ـ لا الحمد ـ ؛ لأنك إنما تبذلُ مالَ غيرك على الحقيقة ـ لا مالَك ـ ، وإعطاءُ الناس حقوقهم مما عندك ليس جودًا، ولٰكنه حق.

[فصل: الشجاعة والجُبْن والتهوُّر]

حدُّ «الشجاعة»: بذلُ النفس للموت عن الدِّينِ والحريم، وعن الجار

---

(١) أي: الغني الذي افتُقر.

(٢) الانتصاف: العدل.

(٣) أي: الإيثارُ على النفس بما لا يهلكها تركه من أعظم الفضائل.

(٤) أي: إذا أخذت شيئًا من غير حقٍّ، أعطيته للآخرين، فقط ظلمتَ مرتين؛ مرةً بأخذ ما لا تستحق، ومرةً بعدم إرجاعه لهم.

المضطهَد، وعن المستجير المظلوم، وعن الهضيمة[1] ظلمًا في المال والعرضِ، وفي سائر سُبل الحق؛ سواءٌ قلَّ مَن يعارضُ أو كثر.

والتقصيرُ عما ذكرنا: جبنٌ وخَوَرٌ، وبذلُها في عَرَض الدنيا تَهوُّرٌ وحُمقٌ. وأحْمقُ من ذلك: مَن بذلها في المنع عن الحقوق الواجبات قِبَلَك أو قِبلَ غيرك. وأحْمقُ من هٰؤلاء كلِّهم: قومٌ شاهدتُهم لا يدْرُون فيما يبذِلون أنفسَهم! فتارةً يقاتلون زيدًا عن عمرو، وتارةً يقاتلون عَمْرًا عن زيد ـ ولعلَّ ذٰلك يكون في يومٍ واحد ـ ؛ فيتعرَّضون للمهالك بلا معنى؛ فينقلبون إلى النار، أو يفرُّون إلى العار.

وقد أنذر بِهٰؤلاء رسولُ اللَّه ﷺ في قوله: «يأتي على الناسِ زمانٌ لا يَدرِي القاتلُ فِيمَ قَتل، ولا المَقتولُ فِيمَ قُتل»[2].

[فصل: حقيقة العِفّة]

حدُّ «العفَّة»: أن تغُضَّ بصرَك وجميعَ جوارحِك عن الأجسام التي لا تَحِلُّ لك؛ فما عدا هٰذا فهو عُهرٌ، وما نقص حتى يُمسِكَك عما أحلَّ اللَّهُ تعالى فهو ضعفٌ وعجز.

[فصل: حقيقة العدْل]

حدُّ «العدل»: أن تعطيَ من نفسك الواجبَ وتأخذَه، وحدُّ «الجَور»: أن تأخذه ولا تعطيه، وحدُّ «الكرم»: أن تعطيَ من نفسك الحق طائعًا، وتتجافَى عن حقك لغيرك قادرًا، وهو فضلٌ ـ أيضًا ـ ، وكلُّ جُودٍ كرمٌ وفضل، وليس كلُّ كرم وفضلٍ جودًا؛ فالفضل أعمُّ، والجودُ أخص؛ إذ الحلمُ فضل وليس

(١) الهضيمة: الذي يُهضم حقُّه.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٩٠٨).

جودًا، والفضلُ فرضٌ زدتَ عليه نافلة.

[فصل: إهمالٌ قليل يفسدُ التعبَ الطويل]

إهمالُ ساعةٍ يفسدُ رياضةَ سَنة.

[فصل: خطأُ الواحد وخطأ الجماعة]

خطأُ الواحد في تدبير الأمور خيرٌ من صواب الجماعة التي لا يجمعُها واحد(١)؛ لأن خطأ الواحد في ذٰلك يُستدرك، وصوابُ الجماعة يُضري(٢) على استدامة الإهمال، وفي ذٰلك الهلاك.

[فصل: نيران الفتنة]

نُوَّارُ الفتنة لا يَعقِد(٣).

[فصل: وقفةٌ مع النَّفْس]

كانت فِيَّ عيوبٌ؛ فلم أَزَل بالرياضة واطلاعي على ما قالت الأنبياء ـ صلوات اللّٰه عليهم ـ ، والأفاضلُ من الحكماء ـ المتأخرين والمتقدمين ـ في الأخلاق وفي آداب النفس أُعاني مداواتِها؛ حتى أعان اللّٰه ﷻ على أكثر ذٰلك بتوفيقه ومَنِّه. وتمامُ العدل، ورياضةُ النفس، والتصرفُ بأزِمَّةِ الحقائق هو: الإقرار بها؛ ليتَّعظَ بذٰلك متعظٌ يومًا ـ إن شاء اللّٰه ـ :

---

(١) أي: الذين لا كبير لهم.

(٢) يُضري: يُعوِّد.

(٣) أي: للفتنة مظهرٌ خادعٌ في مبدئه، قد يَستحسن الناس صورتَها، ويعقدون الآمال عليها، ولٰكن سَرعان ما تموتُ وتتلاشى، مثل الزهرة التي تموت قبل أنْ تتفتح وتعطي ثمرتَها. قاله الشيخ عبدالحق التركماني، كما نقله عنه فضيلة الشيخ مشهور حسن في كتابه القيم: «العراق في أحاديث الفتن» (١/ ٦٧).

فمنها: كلَفٌ[1] في الرضاء، وإفراطٌ في الغضب؛ فلم أزل أُداوي ذٰلك حتى وقفت عند تركِ إظهار الغضب جُملةً بالكلام والفعل والتخبُّط، وامتنعتُ مما لا يحلُّ منَ الانتصار، وتحمَّلتُ من ذٰلك ثُقلًا شديدًا، وصبرت على مَضضٍ مؤلِمٍ كان ربما أمرضني. وأعجزني ذٰلك في الرضا، وكأني سامحتُ نفسي في ذٰلك لأنها تمثَّلت أنَّ تركَ ذٰلك لؤمٌ.

ومنها: دعابةٌ غالبة؛ فالذي قدِرتُ عليه فيها إمساكي عما يُغضبُ المُمازَح، وسامحت نفسي فيها؛ إذ رأيتُ تركها من الانغلاق، ومضاهيًا للكبر.

ومنها: عُجبٌ شديد؛ فناظَرَ عقلي نفسي بما يعرفُه من عيوبها حتى ذهب كلُّه، ولم يَبقَ له ـ والحمدُ للّٰه ـ أثر؛ بل كلفتُ نفسي احتقارَ قدْرها جُملةً واستعمالَ التواضع.

ومنها: حركاتٌ كانت تُولِّدُها غِرارةُ الصِّبا[2]، وضعفُ الإغضاء[3]؛ فقَصَرتُ نفسي على تركها فذهبت.

ومنها: محبةٌ في بُعد الصِّيت والغلبة؛ فالذي وقفتُ عليه من معاناة هٰذا الداء: الإمساكُ فيه عما لا يَحِلُّ في الديانة، واللّٰهُ المستعان على الباقي؛ مع أن ظهورَ النفس الغضَبيةِ ـ إذا كانت منقادةً للناطقة ـ فضلٌ وخُلقٌ محمود[4].

ومنها: إفراطٌ في الأَنَفةِ بغَّضت إليَّ إنكاحَ الحريم جُملةً بكل وجهٍ، وصعُبت ذٰلك في طبيعتي، وكأني توقفتُ عن مغالبة هٰذا الإفراط الذي أعرفُ قُبحه لعوارِضَ اعترضت عليَّ، واللّٰه المستعان.

ومنها: عَيانِ قد سترهما اللّٰهُ تعالى، وأعان على مقاومتهما، وأعان بلطفه

---

(١) الكَلَف: الولوع بالشيء والشغف الشديد به.

(٢) الغِرارة: الجهالة.

(٣) الإغضاء: الإعراض وعدم الاهتمام.

(٤) وإنما يقصد الإمام ـ بلا ريب ـ الغضبَ في الحق لا في الباطل.

عليهما؛ فذهب أحدهما ألبتة ـ وللَّهِ الحمد ـ ؛ وكأنَّ السعادةَ كانت موكَّلةً بي؛ فإذا لاح منه طالعٌ قصدتُ طَمْسَه[١]، وطاولني الثاني منهما؛ فكان إذا ثارت منه مُدودُه نَبَضت عروقُه، فيكادُ يظهر؛ ثم يسَّر اللَّهُ تعالى قدْعَه[٢] بضروبٍ من لُطفه تعالى حتى أخلد[٣].

ومنها: حقدٌ مُفرِطٌ قدَرتُ ـ بعون اللَّه تعالى ـ على طَيِّه وستره، وغلبتُه على إظهار جميعِ نتائجه، وأما قطعُه ألبتة فلم أقدِرْ عليه، وأعجَزني معه أن أصادقَ مَن عاداني عداوةً صحيحةً أبدًا.

وأما سوءُ الظن[٤]؛ فيَعُدُّه قومٌ عيبًا على الإطلاق ـ وليس كذٰلك ـ ؛ إلا إذا أدَّى بصاحبه إلى ما لا يَحلُّ في الديانة، أو ما يَقبُحُ في المعاملة؛ وإلا فهو حزمٌ، والحزمُ أفضل.

وأما الذي يَعيبُني به جُهَّالُ أعدائي ـ من أني لا أبالي فيما أعتقدُه حقًّا عن مخالفةِ مَن خالفتُه؛ ولو أنهم جميعُ مَن على ظهر الأرض، وأني لا أبالي موافقةَ أهل بلادي في كثيرٍ من زيِّهم الذي قد تعوَّدوه لغير معنى ـ : فهٰذه الخصلةُ عندي من أكبر فضائلي التي لا مثيلَ لها، ولَعَمري لو لم تكن فيَّ ـ وأعوذ باللَّه ـ لكانت من أعظم متمنَّياتي وطِلْباتي عند خالقي ﷻ وأنا أُوصي بذٰلك كلَّ من يبلغُه كلامي؛ فلن ينفعَه اتباعُه الناسَ في الباطل والفضول إذا أسخطَ ربَّه تعالى وغَبَن عقلَه أو آلَم نفسه وجسده، وتكلَّف مؤونةً لا فائدة فيها.

وقد عابني ـ أيضًا ـ بعضُ من غاب عن معرفة الحقائق: أني لا آلَمُ لِنيل

---

(١) أي: سعيتُ في محوه وإزالته.

(٢) القَدع: الكف والمنع.

(٣) أخلد: سكن.

(٤) يقصد: شدة الحرص والحذر.

مَن نال مني، وأني أتعدَّى ذٰلك من نفسي إلى إخواني [١]، فلا أمتعضُ لهم إذا نِيل منهم بحضرتي! وأنا أقول: إنَّ مَن وصفني بذٰلك فقد أجمل الكلام ولم يُفسِّرْه، والكلامُ إذا أُجْمل اندرج فيه تحسينُ القبيح وتقبيحُ الحسن؛ ألا ترى لو أنَّ قائلًا قال: «إن فلانًا يطأُ أخته» لفَحُش ذٰلك، ولاستقبحه كلُّ سامع له؛ حتى إذا فسَّر فقال: «هي أختُه في الإسلام» ظهر فُحشُ هٰذا الإجمال وقُبحُه.

وأما أنا؛ فإني إن قلتُ: «لا آلَمُ لنَيل مَن نال مني» لم أصدُق؛ فالألَمُ في ذٰلك مطبوعٌ مجبولٌ في البشر كلهم؛ لٰكني قد قصَرتُ نفسي على ألَّا أُظهرَ لذٰلك غضبًا ولا تخبُّطًا ولا تَهيُّجًا؛ فإن تيسَّر لي الإمساكُ عن المقارضة [٢] جُملةً ـ بأن أتأهَّب لذٰلك ـ ؛ فهو الذي أعتمدُ عليه ـ بحول اللّٰه تعالى وقوته ـ ، وإن بادرني الأمرُ لم أقارِض إلَّا بكلامٍ مؤلِمٍ غيرِ فاحش، أتحرَّى فيه الصدق، ولا أُخرجه مخرجَ الغضب ولا الجهل.

وبالجملة: فإني كارهٌ لهٰذا إلا لضرورةٍ داعيةٍ إليه ـ مما أرجو به قمعَ المُستشري [٣] في النيل مني، أو قدْعَ الناقل إليَّ ـ ؛ إذ أكثرُ الناس محبُّون لإسماع المكروه مَن يُسمعونه إياه عن ألسنة غيرهم [٤]، ولا شيءَ أقدعُ لهم من هٰذا الوجه؛ فإنهم يكفُّون به عن نقلهم المكارهَ على ألسنة الناسِ إلى الناس، وهٰذا [٥] شيءٌ لا يفيد إلَّا إفسادَ الضمائر، وإدخالَ النمائم فقط [٦].

ثم بعد هٰذا؛ فإن النائلَ مني لا يخلو من أحد وجهين ـ لا ثالث لهما ـ :

---

(١) أي: وقد عابني ـ أيضًا ـ البعض بأنني لا أحزنُ إذا آذاني غيري، وأنه قد امتدَّ عدمُ حُزني ـ كذٰلك ـ إلى عدم الغضب لإخواني إذا طُعن فيهم.

(٢) المقارضة: المقابلة.

(٣) المستشري: المتمادي.

(٤) أي: أكثر الناس يحبُّون نقلَ الكلام القبيح مما يسمعونه من الآخرين.

(٥) يعني: نقل الكلام بالنميمة.

(٦) النمائم: الوقيعة.

إما أن يكون كاذبًا، وإما أن يكون صادقًا.

[أ] فإن كان كاذبًا؛ فقد عجَّل اللَّهُ لي الانتصارَ منه على لسان نفسه؛ بأن حصَل في جُملةِ أهل الكذب، وبأنْ نبَّه على فضلي بأن نَسَبَ إليَّ ما أنا منه بريءُ العِرضِ وما يعلمُ أكثرُ السامعين له كَذِبَه إما في وقته ذٰلك، وإما بعد بحثِهم عما قال.

[ب] وإن كان صادقًا؛ فإنه لا يخلو من أحد ثلاثة أوجه:

١ ـ إما أن أكون شاركتُه في أمرٍ استرحتُ إليه استراحةَ المرء إلى مَن يُقدِّرُ فيه ثقةً وأمانةً؛ فهٰذا أسوأُ الناس حالةً، وكفى به سقوطًا وضَعَةً[١].

٢ ـ وإما أن يكون عابني بما يظنُّ أنه عيبٌ ـ وليس عيبًا ـ ؛ فقد كفاني جهلُه شأنَه[٢]، وهو المَعيبُ ـ لا من عاب ـ !.

٣ ـ وإما أن يكون عابني بعيبٍ هو فيَّ على الحقيقة، وعلم مني نقصًا أطلق به لسانَه؛ فإن كان صادقًا فنفسي أحقُّ بأن ألومَ منه، وأنا حينئذٍ أجدرُ بالغضب على نفسي مني على مَن عابني بالحق.

وأما أمرُ إخواني[٣]؛ فإني لستُ أُمسك عن الامتعاض لهم؛ لٰكني أمتعضُ امتعاضًا رقيقًا ـ لا أزيدُ فيه على أن أُندِّمَ القائلَ منهم بحضرتي، وأجعله يتذمَّرُ[٤] ويعتذرُ ويخجلُ ويتنصَّلُ ـ ؛ وذٰلك بأن أسلُكَ به طريقَ ذمِّ مَن نال مِن الناس[٥]، وأنَّ نظر المرءِ في أمر نفسه والتهمُّمَ[٦] بإصلاحها أولى به من

---

(١) الضَّعَة: الخسة والوضاعة.
والمعنى: إما أن أكون أسررتُ إليه بسرٍّ من أسراري ـ عندما استرحتُ إليه وظننت فيه الأمانة ـ ، فإذا جاء وعابني به، فهٰذا من أخسِّ الناس لأنه لم يصُن ما استودعته إياه.

(٢) أي: يكفي بجهله عقابًا له.

(٣) يعني: الغضب لهم.

(٤) يتذمم: يذمُّ نفسه ويعترفُ بقُبح ما فعل، ويتعهدُ بعدم العودة.

(٥) أي: أبيِّنُ له ذمَّ مَن وقع في الناس وذمَّهم من نصوص الكتاب والسنة وكلام العقلاء.

(٦) التهمُّم: الاهتمام.

تتبُّعِ عثراتِ الناس، وبأن أذكُرَ فضل صديقي، فأُبَكِّتُه[١] على اقتصاره على ذِكرِ العيب دون ذكرِ الفضيلة، وأن أقول: إنه لا يرضى بذٰلك فيك[٢]، فهو أولى بالكرم منك؛ فلا ترضَ لنفسك بِهٰذا ـ أو نحو هٰذا من القول ـ.

وأما أن أُهارِشَ[٣] القائل فأُحْميَهِ وأُهيِّجَ طباعه وأستثيرَ غضبه، فينبعث منه في صديقي[٤] أضعافُ ما أكره: فأنا الجاني حينئذٍ على صديقي، والمُعرِّضُ له بقبيح السبِّ، وتكرارِه فيه، وإسماعِه ما[٥] لم يسمعه، والإغراء به، وربما كنتُ ـ أيضًا ـ في ذٰلك جانيًا على نفسي ما لا ينبغي لصديقي أن يرضاه لي من إسماعي الجفاءَ والمكروه، وأنا لا أريد من صديقي أن يَذُبَّ عني بأكثر من الوجه الذي حدَّدتُ؛ فإنْ تعدَّى ذٰلك إلى أن يُسابَّ النائلَ مني حتى يولِّد بذٰلك أن يتضاعَفَ النيلُ، وأن يتعدى ـ أيضًا ـ إليه بقبيح المواجهة ـ وربما إلى أبويَّ وأبويه على قدرِ سَفَهِ النائل ومنزلتِه من البذاءة، وربما كانت منازعةً بالأيدي ـ : فأنا مستنقِصٌ لِفعله في ذلك، زارٍ[٦] عليه، متظلِّمٌ منه، غيرُ شاكرٍ له؛ لٰكني ألومُه على ذٰلك أشدَّ اللوم، وباللّٰه تعالى التوفيق.

وذمَّني ـ أيضًا ـ بعضُ من تعسَّف الأمورَ دون تحقيق: بأني أضيِّعُ مالي! وهٰذه جُملةٌ بيانُها: أني لا أضيِّعُ منه إلا ما كان في حفظِه نقصُ ديني، أو إخلاقِ عِرضي، أو إتعابِ نفسي؛ فإني أرى الذي أحفظُ مِن هٰذه الثلاثة ـ وإن قلَّ ـ أجلَّ في العِوضِ مما يضيعُ من مالي، ولو أنه كلُّ ما ذرَّت عليه

---

(١) التبكيت: التوبيخ.
(٢) إي: لا يرضى أن يكون فيك هٰذا العيب.
(٣) أهارش: أنازع وأخاصم.
(٤) أي: من الطعون وذكر العيوب.
(٥) في المطبوع: «من»، ولعل الأصح ما أثبتُّه.
(٦) زارٍ: محتقر ومتنقص.

الشمس[١].

ووجدتُ أفضلَ نِعَمِ اللَّه تعالى على العبدِ: أن يطبعَه على العدلِ وحُبِّه، وعلى الحق وإيثاره؛ فما استعنتُ على قمع هٰذه الطوالع الفاسدة وعلى كلِّ خيرٍ في الدين والدنيا إلا بما في قوَّتي من ذٰلك، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه تعالى.

وأما مَن طُبع على الجور واستسهالِه، وعلى الظلم واستخفافِه؛ فلييأسْ مِن أن يُصلح نفسه، أو يقوِّمَ طباعه أبدًا، ولْيَعلم أنه لا يُفلحُ في دينٍ ولا في خُلُقٍ محمود[٢].

وأما الزَّهوُ والحسدُ والكذبُ والخيانة؛ فلم أعرِفها بطبعي قط، وكأنني لا حَمْدَ لي في تركها ـ لمنافرةِ جِبِلَّتي إياها ـ، والحمد للَّه رب العالمين.

[فصل: مِن عيوب حُبِّ الشهرة]

مِن عَيب حُبِّ الذِّكرِ أنه يُحبطُ الأعمال إذا أَحبَّ عاملُها أن يُذكر بها، فكاد يكون شِرْكًا[٣]؛ لأنه يعملُ لغير اللَّه تعالى، وهو يَطمِسُ الفضائل؛ لأن صاحبَه لا يكاد يفعلُ الخير حبًّا للخير؛ لٰكن ليُذكَرَ به.

[فصل: المادحُ والذامُّ]

---

(١) أي: ألقت عليه شعاعَها.

(٢) في هٰذا الكلام نظرٌ شديد؛ فإن اللَّهَ تبارك وتعالى إنما أنزل شرعَه المطهَّر ـ الذي يزكِّي الأخلاق ويقوِّمُ اعوجاجَها ـ لجميع الخلائق، من طُبع منهم على الشر ومَن اكتسبه من أحداث الحياة، ومثل هٰذا الكلام يدعو لليأس من الإصلاح وتهذيب النفوس؛ بل على العبد أن يجاهدَ في ليله ونهاره على إصلاح ما فسد من أخلاقه ـ أيًّا كان سببُها ـ، مستعينًا بربِّه ﷻ، متَّبعًا سُبلَ الشفاء في الكتاب والسنة وهَديِ سلف الأمة.

(٣) بل هو شركٌ بالفعل، نعوذ باللَّهِ منه.

أبلَغَ في ذمِّك مَن مدحك بما ليس فيك؛ لأنه نبَّه على نقصِك. وأبلَغَ في مدحك مَن ذمَّك بما ليس فيك؛ لأنه نبَّه على فضلك، ولقد انتصَر لك مِن نفسه بذٰلك، وباستهدافه إلى الإنكار واللائمة[١].

[فصل: ليت الناقصَ يعلمُ نَقصَه!]

لو عَلِم الناقصُ نَقصَه، لكان كاملًا[٢].

[فصل: السعيد من قلّت عيوبه]

لا يخلو مخلوقٌ مِن عيب؛ فالسعيدُ من قلَّت عيوبه ودقَّت.

[فصل: القَدرُ يَجري غالبًا على غير المتوقَّع]

أكثرُ ما يكونُ: ما لم يُظن؛ فالحزمُ هو التأهُّب لما يُظن؛ فسبحانَ مَن رتَّب ذٰلك ليُريَ الإنسانَ عجزَه وافتقاره إلى خالقه ﷻ.

* * *

(١) أي: وقد انتصر لك من نفسه ـ وهو لا يشعرُ ـ لأن الناس سيُكثرون من لومه وتوبيخه.

(٢) يقصد كمالَ الفهم والوعي. وهٰذا لا يعني أن الناقصَ لا يسعى في إتمام نقصِه بما يرتقي به في درجاتِ الكمال.

فصلٌ: في الإخوان والصداقة والنصيحة

[الصديقُ الحق]

استبقاك مَن عاتبك، وزَهِد فيك من استهانَ بسيئاتك[١].

[فصل: عتاب الصديق]

العتابُ للصديق كالسَّبْك للسبيكة؛ فإما تصفو وإما تطير[٢].

[فصل: أَخْوَنُ الأصدقاء]

مَن طوى مِن إخوانك سرَّه الذي يَعْنيكَ دونك: أَخْوَنُ لك ممن أفشى سرَّك؛ لأن مَن أفشى سرَّك فإنما خانك فقط، ومَن طوى سرَّه دونَك منهم فقد خانك واستخونك.

[فصل: لا تقترب ممن لا يريدُك، ولا تبعُد عمن يُحبُّك]

لا ترغَبْ فيمن يزهدُ فيك؛ فتحصُل على الخَيبة والخِزي، [و]لا تزهَدْ فيمن يرغبُ فيك؛ فإنه بابٌ من أبواب الظلم، وتركُ مقارضةِ الإحسان[٣]، وهٰذا قبيح.

[فصل: احذَرْ منَ الناس]

مَن امتُحن بأن يخالطَ الناس، فلا يُلقِ بوَهْمِهِ كلِّه إلى مَن صَحِب[٤]، ولا

---

(١) أي: الصديقُ الحق ـ الذي يريد بقاء صحبتك ـ هو الذي يعاتبك على الخطأ إذا وقع منك، أما مَن يراك مسيئًا فلا ينهاك، فقد زهد فيك في الحقيقة.

(٢) لم أفهم جيدًا معنى: «وإما تطير»!.

(٣) أي: عندما تزهدُ فيمن يرغب فيك، فأنت لا تقابلُ الإحسان بالإحسان.

(٤) أي: لا يخبر مَن صَحِبَ بكل ما يدورُ في نفسه.

يَبِتْ منه إلا على أنه عدوٌّ مناصِب[١]، ولا يصبح كلَّ غداةٍ إلا وهو مترقبٌ من غدْرِ إخوانِه وسوءِ معاملتهم مثلما يترقبُ من العدوِّ المكاشِف[٢]؛ فإن سَلِم من ذٰلك فللَّهِ الحمد، وإن كانت الأخرى أُلفِيَ متأهِّبًا ولم يمُت هَمًّا.

وأنا أُعلِمُك أن بعضَ مَن خالَصَني المودةَ وأصفاني إياها غايةَ الصفاء في حال الشدةِ والرخاءِ والسَّعةِ والضيقِ والغضبِ والرضى: تغيَّر عليَّ أقبحَ تغيُّر بعد اثني عشَر عامًا متصلةً في غاية الصفاء! ولسبب لطيفٍ جدًّا ما قدَّرتُ قط أنه يؤثِّرُ مثلُه في أحدٍ من الناس، وما صلح لي بعدها[٣]، ولقد أهَمَّني ذٰلك سنينَ كثيرةً هَمًّا شديدًا. ولٰكن لا تستعمِلْ ـ مع هٰذا ـ سوءَ المعاملة، فتُلحَقَ بذَوِي الشرارة من الناس[٤] وأهلِ الخَبِّ منهم[٥].

ولٰكن ها هنا طريقٌ وعْرةُ المسلكِ شاقةُ المتكلَّف، يحتاجُ سالكها إلى أن يكون أهدَى من القَطَا[٦]، وأحذَرَ من العَقْعَق[٧] حتى يفارقَ الناس راحلًا إلى ربه تعالى، وهٰذه الطريق هي طريقُ الفوز في الدين والدنيا، يُحرزُ صاحبُها صفاءَ نياتِ ذوي النفوس السليمة والعقود الصحيحة؛ البُرَآءِ من المكر والخديعة، ويَحوي فضائلَ الأبرار وسجايا الفضلاء، ويحصُل ـ مع ذٰلك ـ على سلامةِ الدُّهاة، وتخلُّصِ الخبثاءِ ذوي النُّكراء والدهاء؛ وهي[٨]: أن تكتُمَ سرَّ كلِّ مَن وَثِق بك، وألَّا تُفشيَ إلى أحدٍ من إخوانك ـ ولا من غيرهم ـ

---

(١) المقصود: ألَّا يعطيَهم الأمان كاملًا. وهٰذا خاصٌّ بمن لا تُثبت الأيامُ صِدقَ محبَّته لك.

(٢) المُكاشف: ظاهر العداوة.

(٣) أي: وما صفا لي ودُّه بعد ذٰلك.

(٤) أي: شِرار الخلق.

(٥) الخَب: الغدر والخداع.

(٦) القَطا: طائرٌ صغيرٌ يشبهُ اليمام.

(٧) العَقعق: نوع من الطيور.

(٨) وهٰذه هي «الطريقة الوعرة» المشار إليها في أول الفقرة.

مِن سِرِّك ما يمكنُك طيُّه[١] بوجهٍ ما من الوجوه ـ وإن كان أخص الناس بك ـ، وأن تفيَ لجميع من ائتمنك، ولا تأمنْ أحدًا على شيءٍ من أمرك تُشفِقُ عليه إلا لضرورةٍ لابد منها، فارْتَدْ[٢] حينئـذٍ واجتهـد، وعلى اللّٰه تعالى الكفاية، وابذُلْ فضل مالك وجاهِك لمن سألك ـ أو لم يسألك ـ، ولكل مَن احتاج إليك وأمكنك نفعه ـ وإن لم يعتمِدْك بالرغبة[٣] ـ، ولا تُشعِرْ نفسك انتظارَ مقارضةٍ[٤] على ذٰلك مِن غير ربك ﷻ ولا تَبِتْ إلَّا على أنَّ مَن أَحْسَنْتَ إليه أولُ مُضِرٍّ بك وساعٍ عليك[٥]؛ فإن ذَوِي التراكيب الخبيثةِ يُبغِضون ـ لشدةِ الحسد ـ كلَّ مَن أحسن إليهم ـ إذا رأوه في أعلى من أحوالهم ـ! وعامِل كلَّ أحدٍ في الأُنس أحسنَ معاملة، وأضمِر السُّلُوَّ عنه إن حلَّت بعضُ الآفات التي تأتي مع مرور الأيام والليالي؛ تَعِش مسالمًا مستريحًا.

[فصل: من أصول النصيحة]

لا تَنصحْ على شرط القبول[٦]، ولا تشفَعْ على شرط الإجابة[٧]، ولا تَهَب على شرطِ الإثابة[٨]؛ لٰكن على سبيل استعمال الفضل وتأديةِ ما عليك من النصيحة والشفاعة وبذلِ المعروف.

---

(١) الطَّي: الكتمان.
(٢) ارْتَدْ: تخيَّر بعناية.
(٣) أي: وإن لم يقصِدْك أن تنفعه.
(٤) المقارضة: المقابلة.
(٥) أي: بالأذى ونكران الجميل.
(٦) أي: لا توطِّنْ نفسك ـ إذا نصحت ـ أن المنصوح سيقبل.
(٧) أي: ولا توطِّنْ نفسك ـ إذا شفعتَ لأحد ـ أن المشفوع عنده سيقبل شفاعتك.
(٨) أي: ولا توطِّنْ نفسَك أنك تُهدي هديةً لتأخذ مثلها.

[فصل: حقيقة الصداقة والنصيحة]

حدُّ «الصداقة» ـ الذي يدور على طرفي محدوده ـ : هو أن يكون المرءُ يسوؤُهُ ما يسوءُ الآخر، ويَسُرُّه ما يسُرُّه؛ فمن سفُل عن هٰذا فليس صديقًا، ومَن حَمل هٰذه الصفةَ فهو صديق. وقد يكونُ المرء صديقًا لمن ليس صديقَه.

وأما الذي يدخلُ في باب الإضافة فهو «المُصادَقة»؛ فهٰذا يقتضي فعلًا مِن فاعِلَين؛ إذ قد يحبُّ الإنسانُ مَن يُبغضه، وأكثرُ ذٰلك في الآباء مع الأبناء، وفي الإخوة مع إخوتِهم، وبين الأزواج، وفيمن صارت محبته عشقًا. وليس كلُّ صديق ناصحًا؛ لٰكن كلُّ ناصحٍ صديقٌ فيما نصح فيه.

وحدُّ «النصيحة»: هو أن يسُوءَ المرءَ ما ضرَّ الآخرَ ـ ساء ذٰلك الآخَرَ أم سرَّه ـ، وأن يسُرَّه ما نفعه ـ سرَّ الآخر أم ساءه ـ؛ فهٰذا شرطٌ في النصيحة زائدٌ على شروط الصداقة.

وأقصى غاياتِ الصداقة ـ التي لا مزيد عليها ـ : مَن شاركك بنفسِه وماله لغير عِلةٍ توجب ذٰلك، وآثرك على مَن سواك، ولولا أني شاهدتُ «مظفرًا» و«مباركًا» ـ صاحبَيْ «بَلَنْسِيَة» ـ لقدَّرتُ أن هٰذا الخُلُقَ معدومٌ في زماننا، ولٰكني ما رأيتُ قط رجلين استوفيا جميعَ أسباب الصداقة ـ مع تأتِّي الأحوال الموجِبةِ للفُرقة ـ غيرهما.

[فصل: الاستكثار من الإخوان]

ليس شيءٌ من الفضائل أشبهَ بالرذائل: من الاستكثار منَ الإخوان والأصدقاء؛ فإن ذٰلك فضيلةٌ تامةٌ متركبة؛ لأنهم لا يُكتسَبون إلَّا بالحِلم، والجود، والصبر، والوفاء، والاستضلاع[1]، والمشاركة، والعِفة، وحُسن

(١) الاستضلاع: القوة.

الدفاع[1]، وتعليم العلم، وبكل حالةٍ محمودة.

ولسنا نعني الشاكريةَ والاتباع أيام النعمة[2]؛ فأولٰئك لصوصُ الإخوان، وخَبَثُ الأصدقاء، والذين يُظنُّ أنهم أولياء ـ وليسوا كذٰلك ـ ؛ ودليلُ ذٰلك: انحرافُهم عند انحراف الدنيا.

ولا نعني ـ أيضًا ـ المصادِقين لبعض الأطماع، ولا المتنادِمين على الخمر والمجتمعينَ على المعاصي والقبائح، والمتألِّفين[3] على النَّيل من أعراض الناس والأخذِ في الفضول وما لا فائدة فيه؛ فليس هٰؤلاء أصدقاء؛ ودليل ذٰلك: أن بعضهم يَنال مِن بعض، وينحرفُ عنه عند فقد تلك الرذائل التي جَمعتهم.

وإنما نعني إخوانَ الصفاء لغير معنًى إلا للّٰه ﷻ إما للتناصُر على بعض الفضائل الجِدِّية، وإما لنفسِ المحبةِ المجرَّدة فقط.

ولٰكن إذا أحصيتَ عيوب الاستكثار منهم، [رأيت][4] صعوبةَ الحال في إرضائهم، والغَرَر[5] في مشاركتهم، وما يلزمُك من الحق لهم عند نكبةٍ تَعرِضُ لهم؛ فإن غدرتَ بهم ـ أو أسلمتهم ـ لُئِمْتَ وذُمِمْتَ، وإن وفَّيتَ أضررتَ بنفسك ـ وربما هلكتَ ـ ، وهٰذا الذي لا يَرضى الفاضلُ بسواه إذا تنشَّب[6] في الصداقة. وإذا تفكَّرتَ في الهمِّ بما يَعرِضُ لهم وفيهم ـ من موتٍ، أو فراقٍ، أو غدرِ مَن يَغدِرُ منهم ـ : كاد السرورُ بهم لا يَفي بالحُزن

(١) أي: حسن الدفاع عنهم.

(٢) في المطبوع: «الحرمة»، ولعل الأصح ما أثبتُّه، ولما في المطبوع وجهٌ، ويكون المقصود مشابهًا لما أثبته؛ إذ صاحب النعمةِ تكون له حرمةٌ وافرةٌ عند أهل الدنيا.

(٣) المتألِّفين: المجتمعين ـ أيضًا ـ .

(٤) في المطبوع: «ما»، ولعل الأصح ما أثبتُّه؛ إذ به يستقيم الكلام، والعلم عند اللّٰه تعالى.

(٥) الغرر: الخداع. والقصود: المغامرة غير المحسوبة.

(٦) تنشَّب: تعلق.

المُمِضّ[1] من أجلهم.

[فصل: محبَّةُ المدح من أعظم الرذائل]

ليس في الرذائل أشبهُ بالفضائل من محبَّةِ المدح، ودليلُ ذٰلك أنه في الوجهِ سُخفٌ ممن يَرضى به، وقد جاء في الأثر في المداحين ما جاء[2]؛ إلَّا أنه قد يُنتفع به في الإقصار عن الشر والتزيُّدِ من الخير، وفي أن يَرغَبَ في ذٰلك الخُلُقِ الممدوح مَن سَمِعه. ولقد صحَّ عندي أن بعض السائسين للدنيا[3] لقي رجلًا من أهل الأذى للناس ـ وقد قُلِّد بعضَ الأعمال الخبيثة ـ؛ فقابله بالثناء عليه، وبأنه قد سمع شكرَه مستفيضًا، ووَصْفَه بالجميل والرفقِ منتشرًا؛ فكان ذٰلك سببًا إلى إقصار ذٰلك الفاسقِ عن كثيرٍ من شرِّه.

[فصل: فرقٌ دقيق بين النصيحةِ والنميمة]

بعضُ أنواع النصيحة يُشكِلُ تمييزُه من النميمة؛ لأن مَن سمع إنسانًا يذمُّ آخرَ ظالمًا له، أو يكيدُه ظالمًا له؛ فكتم ذٰلك عن المقول فيه والمكيد: كان الكاتمُ لذٰلك ظالمًا مذمومًا. ثم إن أعلَمه بذٰلك على وجهه كان ربما قد وَلَّد على الذامِّ والكائد ما لم يبلُغه استحقاقُه بعدُ من الأذى[4]؛ فيكون ظالمًا له، وليس منَ الحق أن يُقتصَّ من الظالِمِ بأكثرَ مِن قدْرِ ظُلمه؛ فالتخلُّصُ من هٰذا الباب صعبٌ إلَّا على ذوي العقول.

---

(١) المُمِض: المؤلِم.

(٢) كقوله ﷺ: «إذا رأيتم المدَّاحين فاحثُوا في وجوههم التراب». صحيح: رواه أحمد (٦/ ٥)، ومسلم (٢٢٩٧)، وأبو داود (٤٨٠٤)، والترمذي (٢٣٩٣)، وابن ماجه (٣٧٤٢).

(٣) أي: أهل السياسة والرياسة.

(٤) أي: وإذا أخبر المطعون فيه كان قد جلب على الطاعن شرًّا كبيرًا لا يستحقُّه؛ وذٰلك إذا سعى المطعون فيه إلى معاقبةِ الطاعن بأكثر مما يستحق.

والرأيُ للعاقل ـ في مثل هٰذا ـ إن يحفظَ المقولَ فيه من القائل فقط[١]؛ دون أن يُبلِّغَه ما قال؛ لئلَّا يقعَ في الاسترسال [كلامٌ] زائدٌ فيَهلِك.

وأما في الكيد؛ فالواجبُ أن يحفظَه من الوجه الذي يُكادُ منه بألطفِ ما يقدرُ في الكتمان على الكائد، وأبلغُ ما يقدرُ في تحفيظ المكيد، ولا يَزِدْ على هٰذا شيئًا.

وأما النميمة، فهي التبليغُ لِما سَمِع مما لا ضررَ فيه على المبلَّغ إليه[٢]، وبالله التوفيق.

[فصل: تكرار النصيحة]

النصيحةُ مرتان: فالأولى فرضٌ وديانة، والثانية تنبيهٌ وتذكير، وأما الثالثةُ فتوبيخٌ وتقريع، وليس وراء ذٰلك إلا التركُّل واللِّطام[٣]، وربما أشدُّ مِن ذٰلك مِن البَغْي والأذى، اللَّهم إلَّا في معاني الديانة[٤]؛ فواجبٌ على المرء تِردادُ[٥] النصح فيها ـ رَضِيَ المنصوحُ أو سَخِط، تأذَّى الناصحُ بذٰلك أو لم يتأذَّ ـ.

وإذا نصحت فانصح سرًّا ـ لا جهرًا ـ، وبتعريضٍ ـ لا تصريح ـ؛ إلَّا ألَّا يفهمَ المنصوحُ تعريضَك؛ فلابد من التصريح له، ولا تَنصحْ على شرط القبول منك[٦].

فإذا تعدَّيت هٰذه الوجوهَ فأنت ظالِمٌ ـ لا ناصح ـ، وطالبُ طاعةٍ ومُلكٍ

---

(١) أي: يدافع عن حرمةِ المطعون فيه أمامِ الطاعن فقط، واللَّهُ أعلم.

(٢) لعله يقصد: مما لا ضررَ فيه على المبلَّغ إليه إذا لم يبلُغْه.

(٣) التركُّل: التضارب بالأقدام. اللِّطام: اللطم والضرب.

(٤) أي: إلا إذا كان تكرار النُّصحِ لمصلحةٍ شرعيةٍ من دوام تذكير الخلق وتثبيتهم على الحق، واللَّهُ أعلم.

(٥) ترداد: تكرار.

(٦) أي: لا تنتظر القبول ـ كما سلف ـ.

ـ لا مؤدِّي حقٍّ ديانةٍ وأُخوَّة ـ، وليس هٰذا حكمَ العقل ولا حكمَ الصداقة؛ لٰكن حكمَ الأمير مع رعيته، والسيد مع عبيده.

[فصل: لا تكلِّفْ صاحبك ما لا تفعلُه له]

لا تكلِّفْ صديقَك إلَّا مثلَ ما تبذُلُ له من نفسك؛ فإن طلبتَ أكثر فأنت ظالم. ولا تكسِبْ إلا على شرط الفَقد[1]، ولا تتولَّ إلَّا على شرط العَزْل[2]، وإلا فأنت مضرٌّ بنفسك خبيثُ السيرة.

[فصل: مسامحةُ أهل الأطماع]

مسامحةُ أهلِ الاستئثار والاستغنام[3]، والتغافلُ لهم: ليس مروءةً ولا فضيلة؛ بل هو مهانةٌ وضَعفٌ وتضريةٌ[4] لهم على التمادي على ذٰلك الخُلُق المذموم، وتغبيطٌ[5] لهم به، وعونٌ لهم على ذٰلك الفِعل السُّوء. وإنما تكون المسامحةُ مروءةً لأهل الإنصاف المُبادِرين إلى الإنصاف والإيثار؛ فهٰؤلاء فرضٌ على أهل الفضل أن يعاملوهم بمثل ذٰلك؛ لا سيما إن كانت حاجتُهم أَمَسَّ وضرورتُهم أشد.

فإن قال قائل: فإذا كان كلامُك هٰذا موجبًا لإسقاطِ المسامحة والتغافل للإخوان فيه؛ استوى الصديقُ والعدوُّ والأجنبيُّ في المعاملة؛ فهٰذا فساد ظاهر[6].

---

(١) أي: ما حصَّلتَه من متاع فوطِّن نفسك على فقده في أي وقت.

(٢) أي: لا تتولَّ أمرًا إلا وقد وطنت نفسَك على أنك ستُعزل عنه.

(٣) أي: أهل الطمع وجمع الغنائم. واللَّهُ أعلم.

(٤) التضرية: الدفع.

(٥) التغبيط: الإسعاد.

(٦) يعني السائل: لأننا ـ عادةً ـ لا نسامِحُ العدوَّ والأجنبي في المعاملة، فإذا فعلنا نفس الأمر مع الصديق استوى معهم في المنزلة؛ وهٰذا لا ينبغي!.

فنقول ـ وباللّه التوفيق ـ : كلَّا؛ ما نحُضُّ إلا على المسامحة والتغافل والإيثار ـ ليس لأهل التغنُّم ـ ولٰكن للصديق حقًّا؛ فإن أردت معرفةَ وجه العمل في هٰذا والوقوفِ على نَهج الحق؛ فإن القضيةَ التي توجبُ الأَثَرَةَ من المرء على نفسه صديقَه؛ ينبغي لكل واحدٍ من الصديقين أن يتأمل ذٰلك الأمر؛ فأيُّهما كان أمسَّ حاجةً فيه، وأظهر ضرورةً لديه؛ فحُكمُ الصداقة والمروءة تَقتضي للآخر وتُوجب عليه أن يؤثِرَ على نفسه في ذلك؛ فإن لم يفعل ذٰلك فهو متغنِّمٌ مستكثر، لا ينبغي أن يسامَح ألبتة؛ إذ ليس صديقًا ولا أخًا.

فأما إذا استوت حاجتُهما، واتفقت ضرورتُهما؛ فحقُّ الصداقة هاهنا أن يُسارعَ كلُّ واحدٍ منهما إلى الأثَرةِ على نفسه، فإنْ فعلا ذٰلك فهما صديقان، وإن بَدَر أحدهما إلى ذٰلك ولم يبادِرِ الآخرُ إليه؛ فإن كانت عادتُه هٰذه فليس صديقًا، ولا ينبغي أن يعامَل معاملةَ الصداقة، وإن كان قد يبادِرُ هو ـ أيضًا ـ إلى مِثل ذٰلك في قضيةٍ أخرى فهما صديقان.

[فصل: مَن سألك شيئًا فلا تَعدلْ عن بُغيته]

مَن أردتَ قضاء حاجته ـ بعد أن سألك إياها ـ ، أو أردتَ ابتداءه بقضائها: فلا تَعمل له إلَّا ما يريد هو ـ لا ما تريد أنت ـ ، وإلا فأمسِكْ؛ فإن تعدَّيتَ هٰذا كنت مسيئًا ـ لا محسنًا ـ ، ومستحقًّا للوم منه ومن غيره ـ لا للشكر ـ ، ومقتضيًا للعداوة ـ لا للصداقة ـ .

[فصل: لا تَجرحْ صاحبك]

لا تنقُلْ إلى صديقك ما يؤلِمُ نفسه ولا ينتفع بمعرفته؛ فهٰذا فعلُ الأرذال. ولا تكتُمْه ما يستضِرُّ بجهله؛ فهٰذا فعلُ أهلِ الشر.

[فصل: لا تفرح إذا مُدحتَ بما ليس فيك]

لا يسُرَّك أن تُمدح بما ليس فيك؛ بل لِيعظُمْ غمُّك بذٰلك؛ لأنه نَقَصٌ ينبِّهُ[١] الناسَ عليه، ويُسمعهم إياه، وسخريةٌ منك وهزؤٌ بك، ولا يرضى بِهٰذا إلا أحمقُ ضعيفُ العقل.

ولا تأسَ[٢] إن ذُمِمتَ بما ليس فيك؛ بل افرح به؛ فإنه فَضْلُك يُنبِّهُ الناسَ عليه، ولٰكن افرح إذا كان فيك ما تستحقُّ به المدح، وسواءٌ مُدحت به أو لم تمدح، واحزَنْ إذا كان فيك ما تستحقُّ به الذم، وسواءٌ ذُممت به أو لم تُذَم.

[فصل: احذرِ الكذَّاب]

مَن سمع قائلًا يقول في امرأةِ صديقه قولَ سُوء فلا يُخبِرْه بذٰلك أصلًا؛ لا سيما إذا كان القائلُ عيَّابةً وقاعًا في الناس سليطَ اللسان، أو دافِعَ معرَّةٍ عن نفسه يريدُ أن يَكثُرَ أمثالُه في الناس، وهٰذا كثيرٌ موجود.

وبالجملة فلا يُحدِّثِ الإنسانُ إلا بالحق، وقولُ هٰذا القائل لا يُدرى أحقٌّ هو أم باطل؛ إلا أنه في الديانة عظيم[٣]؛ فإذا سَمع القولَ مستفيضًا من جماعةٍ، وعَلِم أن أصلَ ذٰلك القولِ شائعٌ ـ وليس راجعًا إلى قولِ إنسانٍ واحد ـ ، أو اطَّلع على حقيقته؛ إلَّا أنه لا يَقدِرُ أن يُوقِفَ[٤] صديقَه على ما وقف هو عليه؛ فلْيُخبِرْه بذٰلك بينه وبينه في رفقٍ؛ ولْيَقُل له: النساءُ كثير، أو حصِّن منزلك، وثقِّف أهلك[٥]، أو اجتنب أمرَ كذا، وتحفَّظْ من وجه كذا؛

(١) أي: المادح بغير الحق.

(٢) لا تأس: لا تحزن.

(٣) لأنه طعنٌ في عِرض امرأة، أو إن ثبت فعلًا فهو من الكبائر المستبشعة.

(٤) يُوقِف: يُخبِر.

(٥) ثقِّف: اعمل على تقويمهم.

فإن قَبِل المنصوح وتحرَّز فحَظَّ نفسِه أصاب، وإن رآه لا يتحفَّظُ ولا يُبالي أمسَكَ ولَم يُعاوِدْه بكلمة، وتمادى على صداقته إياه؛ فليس في ألَّا يُصدِّقَه في قوله ما يوجب قطيعتَه.

فإنِ اطَّلع على حقيقةٍ، وقَدَر أن يُوقِفَ صديقه على مثل ما وقف عليه هو من الحقيقة؛ ففرضٌ عليه أن يخبره بذٰلك، وأن يُوقِفَه على الجليَّة؛ فإنْ غيَّر فذٰلك، وإن رآه لا يُغيِّرُ اجتنب صحبته؛ فإنه رذلٌ لا خير فيه ولا نقيَّة.

ودخولُ رجلٍ متستِّرٍ في منزل المرء دليلُ سوءٍ لا يحتاجُ إلى غيره. ودخولُ المرأة في منزل رَجلٍ على سبيل التستر مثلُ ذٰلك ـ أيضًا ـ، وطلبُ دليلٍ أكثرَ من هٰذين سُخفٌ.

وواجبٌ أن يَجتنبَ مثل هٰذه المرأة، ويفارقَها[١] على كل حالٍ، ومُمسِكُها لا يبعُدُ عن الدِّياثة.

[فصل: مراتب الناس في الأخلاق]

الناسُ في أخلاقهم على سَبْع مراتب:

١ ـ فطائفةٌ تَمدح في الوجه، وتَذُمُّ في المَغيب؛ وهٰذه صفةُ أهل النفاق من العيَّابين، وهٰذا خُلقٌ فاشٍ في الناس غالبٌ عليهم.

٢ ـ وطائفةٌ تَذُمُّ في المَشهد والمغيب؛ وهٰذه صفةُ أهل السلاطة والوقاحةِ من العيَّابين.

٣ ـ وطائفةٌ تمدحُ في الوجه والمغيب؛ وهٰذه صفةُ أهل المَلَقِ[٢] والطمع.

٤ ـ وطائفة تذمُّ في المشهد وتمدحُ في المغيب. وهٰذه صفةُ أهلِ السُّخفِ والنَّواكة[٣].

(١) في المطبوع: «وفراقها»، ولعل الأدق ما أثبتُّه.
(٢) الملق: تصنع المحبَّة.
(٣) النواكة: الحُمق.

٥ ـ وأما أهلُ الفضل؛ فيُمسِكون عن المدح والذم في المشاهدة، ويُثنُون بالخير في المغيب، أو يُمسكون عن الذم.

٦ ـ وأما العيَّابون البُرآءُ من النفاق والقُحَّة[١]؛ فيُمسكون في المشهد، ويَذُمُّون في المغيب.

٧ ـ وأما أهل السلامة؛ فيُمسِكون عن المدح وعن الذم في المشهد والمغيب.

ومِن كلٍّ مِن أهل هٰذه الصفات قد شاهدنا وبلَوْنا.

[فصل: مِن أصول النصيحة]

إذا نصحتَ ففي الخَلاء، وبكلام ليِّن، ولا تُسنِد سبَّ مَن تُحدِّثُه إلى غيرك؛ فتكون نمامًا؛ فإن خشَّنتَ كلامَك في النصيحة فذٰلك إغراءٌ وتنفير، وقد قال اللّٰه تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه]، وقال رسولُ اللّٰه ﷺ: «لا تُنفِّروا»[٢].

وإن نصحتَ بشرطِ القبولِ منك فأنت ظالِم، ولعلك مخطئٌ في وجه نُصحك؛ فتكون مطالِبًا بقبول خطئك وبترك الصواب.

[فصل: لكل شيءٍ فائدة]

لكل شيءٍ فائدة، ولقد انتفعتُ بمَحَكِّ[٣] أهلِ الجهل منفعةً عظيمة؛ وهي أنه توقَّد طبعي، واحتدم خاطري[٤]، وحَمِي فكَري، وتَهيَّج نشاطي؛ فكان

(١) القُحَّة: سوء الأدب والخُلق.

(٢) صحيح: رواه أحمد (٣/ ١٣١، ٢٠٩) و(٤/ ٣٩٩)، والبخاري (٩٦)، ومسلم (١٧٣٤)، وأبو داود (٤٧٩٤).

(٣) المَحَك: القرب والمعاملة.

(٤) احتدم: اشتد.

ذٰلك سببًا إلى تواليفَ لي عظيمةِ المنفعة، ولولا استثارتُهم ساكني[(١)] واقتداحَهم كامني[(٢)]؛ ما انبعثتُ لتلك التواليف.

[فصل: لا تُصاهِرْ صديقًا ولا تبايعه]

لا تُصاهِرْ إلى صديق، ولا تبايعْه؛ فما رأينا هٰذين العَملين إلا سببًا للقطيعة ـ وإن ظن أهلُ الجهل أن فيهما تأكيدًا للصلة ـ فليس كذٰلك؛ لأن هٰذين العَقدين داعيانِ كلَّ واحدٍ إلى طلبِ حظِّ نفسِه، والمؤثِرون على أنفسهم قليلٌ جدًّا ؛ فإذا اجتمع طلبُ كلِّ امرئٍ حظَّ نفسه وقعت المنازعةُ، ومع وقوعها فسادُ المروءة.

وأسلمُ المصاهرة مَغبَّةً مصاهرةُ الأهْلِينَ بعضهم بعضًا؛ لأن القرابة تقتضي العدل[(٣)] ـ وإن كرهوه ـ ؛ لأنهم مُضطرُّون إلى ما لا انفكاك لهم منه من الاجتماع في النسَب الذي توجب الطبيعةُ لكلِّ أحدٍ الذبَّ عنه والحمايةَ له.

❁ ❁ ❁

(١) أي: خبايا نفسي.

(٢) أي: الخبايا ـ أيضًا ـ.

(٣) في بعض المطبوعات: «الصبر»، وكلاهما وجيهٌ.

فصل: في المَحبَّة وأنواعها

وقد سُئلتُ عن تحقيق القول فيها وفي أنواعِها.

المحبةُ كلُّها جنسٌ واحد، ورسمها[١]: أنها الرغبةُ في المحبوب وكراهةُ منافرته، والرغبةُ في المقارضة[٢] منه بالمحبة. وإنما قدَّر الناسُ أنها تختلفُ من أجل اختلاف الأغراض فيها، وإنما اختلفت الأغراضُ من أجل اختلاف الأطماع وتزايُدِها وضَعفِها أو انحسامها[٣]؛ فتكون المحبةُ للَّه ﷻ وفيه، وللاتفاقِ على بعض المطالب، وللأب، والابن، والقرابة، والصديق، وللسلطان، ولذات الفراش، وللمحسِن، وللمأمول، وللمعشوق؛ فهٰذا كله جنسٌ واحد اختلفت أنواعه ـ كما وصفتُ لك ـ على قدْر الطمع فيما يُنال من المحبوب؛ فلذٰلك اختلفت وجوهُ المحبَّة.

وقد رأينا مَن مات أسفًا على ولده ـ كما يموتُ العاشقُ أسفًا على معشوقه ـ ، وبلَغنا عمن شَهِق من خوف اللَّه تعالى ومحبته فمات، ونجد المرءَ يغارُ على سلطانه وعلى صديقِه كما يغارُ على ذات فراشه، وكما يغارُ العاشق على معشوقه.

فأدنى أطماعِ المَحبةِ ممن تحب: الحَظوةُ منه، والرفعةُ لديه، والزلفةُ[٤] عنده؛ إذا لم تطمع في أكثر. وهٰذه غايةُ أطماع المحبين للَّه ﷻ. ثم يزيد الطمع في المجالسة، ثم في المحادثة والمؤازرة[٥]، وهٰذه أطماع المرء في سلطانه وصديقه وذوي رحِمه.

---

(١) الرَّسْم: العلامة.

(٢) المقارضة: المقابلة.

(٣) انحسامها: انقطاعها.

(٤) الزُّلفة: القرب.

(٥) المؤازرة: المناصرة.

وأقصى أطماع المُحبِّ ممن يُحبُّ: المخالطة بالأعضاء ـ إذا رجا ذٰلك ـ؛ ولذٰلك تجدُ المُحبُّ المفرطُ المحبة في ذاتِ فراشه يرغب في جِماعها على هيئاتٍ شتى وفي أماكنَ مختلفةٍ ليستكثرَ من الاتصال، ويدخلُ في هٰذا الباب الملامسةُ بالجسد والتقبيل، وقد يقع بعضُ هٰذا الطمع من الأب في ولده، فيتعدَّى إلى التقبيل والتعنيق[1].

وكلُّ ما ذكرنا إنما هو على قدْر الطمع؛ فإذا انحسم الطمعُ عن شيءٍ ما لبعض الأسباب الموجبةِ له، مالت النفس إلى ما تطمع فيه.

ونجدُ المُقرَّ بالرؤية للّٰه ﷻ شديدَ الحنين إليها، عظيمَ النزوع نحوها؛ لا يقنعُ بدرجةٍ دونها؛ لأنه يطمعُ فيها، وتجدُ المنكرَ لها لا تحنُّ نفسُه إلى ذٰلك ولا يتمنَّاه أصلًا؛ لأنه لا يطمع فيه، وتجده يقتصرُ على الرضا والحلولِ في دار الكرامة فقط؛ لأنه لا تطمعُ نفسه في أكثر.

ونجدُ المُستحِلَّ لنكاح القرائب لا يقنعُ منهن بما يقنعُ المُحرِّمُ لذٰلك؛ ولا تقفُ محبتُه حيث تقفُ محبةُ مَن لا يطمع في ذٰلك؛ فتجدُ مَن يستحلُّ نكاح ابنته وابنةِ أخيه ـ كالمجوس واليهود ـ لا يقف من محبتهما حيث تقف محبةُ المسلم؛ بل نجدُهما يتعشَّقان الابنةَ وابنةَ الأخ كتعشُّقِ المسلم مَن يطمعُ في مخالطتِه بالجماع.

ولا نجد مسلمًا يبلغُ ذٰلك فيهما ـ ولو أنهما أجْملُ من الشمس، وكان هو أعهَرَ الناس وأغزلَهم[2] ـ، فإن وُجد ذٰلك في النُّدرة فلا تجده إلَّا من فاسد الدين قد زال عنه ذٰلك الرادعُ، فانفسح له الأمل، وانفتح له بابُ الطمع.

ولا يؤمَنُ منَ المسلم أن تُفرِطَ محبتُه لابنة عمه حتى تصيرَ عشقًا، وحتى تتجاوز محبتُه لها محبتَه لابنته وابنةِ أخيه ـ وإن كانتا أجْملَ منها ـ؛ لأنه يطمع

(١) التعنيق: المعانقة.

(٢) أعهر: أفجر. أغزلهم: أكثرهم غزَلًا.

من الوصول إلى ابنةِ عمه حيث لا يطمع من الوصول إلى ابنتِه وابنة أخيه.

وتجدُ النصرانيَّ قد أَمِن ذٰلك من نفسه في ابنةِ عمه ـ أيضًا ـ ؛ لأنه لا يطمع منها في ذلك، ولا يأمنُ ذٰلك من نفسِه في أخته من الرضاعة؛ لأنه طامعٌ بها في شريعته.

فلاح[١] بِهٰذا عِيانًا ما ذكرنا من أن المحبة كلَّها جنسٌ واحد، لٰكنها تختلف أنواعُها على قدْر اختلاف الأغراض فيها، وإلا فطبائعُ البشر كلِّهم واحدة؛ إلا أن للعادة والاعتقادِ الديني تأثيرًا ظاهرًا.

ولسنا نقول: إن الطمع له تأثيرٌ في هٰذا الفنِّ وحده؛ لٰكنا نقول: إن الطمع سببٌ إلى كلِّ همٍّ ـ حتى في الأموال والأحوال ـ ؛ فإننا نجد الإنسانَ يموت جارُه وخالُه وصديقُه وابنُ عمتِه وعمُّه لأمٍّ وابنُ أخيه لأمٍّ وجَدُّه أبو أمه وابنُ بنته؛ فإذْ لا مطمع له في مالِه ارتفع عنه الهمُّ لفوتِه عن يده ـ وإن جلَّ خطرُه وعظُم مقدارُه ـ ، فلا سبيلَ إلى أن يمرَّ الاهتمامُ لشيءٍ منه بباله؛ حتى إذا مات له عَصَبةٌ على بُعدٍ أو مولًى على بُعد، وحدث له الطمعُ في ماله: حدث له من الهمِّ والأسفِ والغيظِ والفكرةِ ـ بفوتِ اليسير منه عن يدِه ـ أمرٌ عظيم.

وهٰكذا في الأحوال؛ فنجد الإنسانَ مِن أهل الطبقةِ المتأخِّرة لا يهتمُّ لإنفاذِ غيرِه أمورَ بلده دون أمرِه، ولا لتقريب غيرِه وإبعاده؛ حتى إذا حَدَث له مَطمعٌ في هٰذه المرتبة حَدَث له من الهمِّ والفكرة والغيظِ أمرٌ ربما قاده إلى تَلَفِ نفسه وتلَفِ دنياه وأُخراه.

فالطمعُ ـ إذن ـ أصلٌ لكلِّ ذلٍّ ولكلِّ همٍّ، وهو خُلقُ سُوءٍ ذَميم، وضدُّه نزاهةُ النفس، وهٰذه صفةٌ فاضلةٌ مركَّبةٌ منَ النجدةِ والجُود والعدلِ والفهمِ؛ لأنه رأى قلةَ الفائدة في استعمال ضدِّها فاستعملها، وكانت فيه نجدةٌ أنتجت له عزةَ نفسه فتنزَّه، وكانت فيه طبيعةُ سخاوةِ نفس فلم يهتمَّ لِمَا فاته، وكانت

(١) لاح: ظهر.

فيه طبيعةُ عدلٍ حَبَّبت إليه القناعةَ وقلَّةَ الطمع.

فإذن: نزاهةُ النفس متركبةٌ من هٰذه الصفات؛ فالطمعُ ـ الذي هو ضدُّها ـ متركبٌ من الصفاتِ المضادةِ لهٰذه الصفات الأربع؛ وهي: الجُبن، والشُّحُّ، والجَورُ، والجهل.

والرغبة طمعٌ مستوفًى متزايدٌ مستعمَل، ولولا الطمعُ ما ذلَّ أحدٌ لأحد.

○ وأخبرني أبو بكر بن أبي الفيَّاض قال: «كتب عثمانُ بن مُحامس على باب داره بـ«إستجة»: يا عثمان، لا تطمع».

❁ ❁ ❁

فصولٌ مِن هذا الباب في المَحبة

[الامتحانُ بقُرب المكروه]

مَن امتُحن بقُرب مَن يكره، كمن امتُحن ببُعد مَن يُحبُّ؛ ولا فرق.

[فصل: دعوةُ المُحِب]

إذا دعا المحبُّ في السُّلو[١]، فإجابتُه مضمونة، ودعوتُه مجابة.

[فصل: اقنعْ بما عندك]

اقنعْ بمن عندك، يَقنعْ بك مَن عندك.

[فصل: السعيد في المَحبة]

السعيدُ في المحبة هو مَن ابتُلي بمَن يقدر أن يُلقِي عليه قُفْلَه[٢]، ولا تلحقُه في مواصلته تَبِعةٌ من اللَّه ﷻ ولا ملامةٌ من الناس، وصلاحُ ذاك أن يتوافقا في المحبة. وتحديدُه: أن يكونا خاليينِ منَ المَلل؛ فإنه خُلُق سُوء مُبغِّض، وتمامُه نومُ الأيام عنهما مدةَ انتفاع بعضِهما ببعض، وأنَّى بذٰلك إلَّا في الجنة.

وأما ضمانه بيقين؛ فليس إلَّا فيها، فهي دارُ القرار، وإلَّا فلو حَصَل ذٰلك كلُّه في الدنيا لم تؤمَن الفجائع، ولقُطع العمرُ دون استيفاءِ اللذة.

[فصل: ضياعُ الغَيرة دليلُ ضياع المَحبة]

إذا ارتفعت الغَيرةُ فأيقِنْ بارتفاع المحبة.

---

(١) السلو: النسيان.

(٢) أي: يقدر على الخلوة به.

[فصل: حقيقة الغَيرة]

الغيرةُ خُلقٌ فاضل متركِّبٌ من النجدة والعدل؛ لأنَّ مَن عَدَل كرِهَ أن يتعدَّى إلى حُرمةِ غيره، وأن يتعدى غيرُه إلى حرمته، ومن كانت النجدةُ طبعًا له حدثت فيه عزةٌ، ومِن العزَّة تحدُثُ الأَنَفةُ من الاهتضام(١).

أخبَرني بعضُ مَن صحبناه في الدهر عن نفسه: أنه ما عَرف الغيرةَ قطُّ؛ حتى ابتُلي بالمحبَّة فغار.

وكان هٰذا المُخبِرُ فاسدَ الطبع خبيثَ التركيب؛ إلَّا أنه كان مِن أهل الفهم والجُود.

[فصل: درجات المَحبة]

دَرَجُ المحبة خَمْسة:

أوَّلُها: الاستحسان، وهو أن يتمثَّل الناظرُ صورةَ المنظور إليه حسنةً، أو يَستحسنُ أخلاقه، وهٰذا يدخلُ في باب التصادُق.

[ثانيها]: ثم الإعجاب به، وهو رغبةُ الناظر في المنظور إليه وفي قُربه.

[ثالثها]: ثم الأُلفة؛ وهي الوحشةُ إليه إذا غاب.

[رابعها]: ثم الكَلَف؛ وهو غلبةُ شُغل البال به، وهٰذا النوع يسمى في باب الغزل بـ«العشق».

[خامسها]: ثم الشغف، وهو امتناعُ النوم والأكلِ والشرب إلَّا اليسيرَ من ذٰلك، وربَّما أدَّى ذٰلك إلى المرض، أو إلى التوسوُس، أو إلى الموت.

وليس وراءَ هٰذا منزلةٌ في تناهي المحبةِ أصلًا.

---

(١) الاهتضام: الظلم وضياع الحق.

[فصل: أشدُّ أصنافِ النساءِ عِشقًا]

كنا نظنُّ أن العشقَ في ذواتِ الحركـةِ والحِـدَّةِ من النساء أكثر، فوجَدْنا الأمرَ بخلاف ذٰلك، وهو في الساكنةِ الحركاتِ أكثر؛ ما لم يكن ذٰلك السكونُ بَلَهًا[1].

❁ ❁ ❁

(١) البلاهة: الحُمق والغباء.

فصلٌ: في صَباحةِ[(١)] الصُّورِ وأنواعها

وقد سئلتُ عن تحقيق الكلام فيها؛ فقلت:

ـ الحلاوةُ: رقةُ المحاسن، ولُطفُ الحركات، وخفةُ الإشارات، وقبولُ النفس لأعراض الصور ـ وإن لم تكن ثَمَّ صفاتٌ ظاهرة ـ.

ـ القَوَام: جمالُ كلِّ صفةٍ على حِدَتِها، ورُبَّ جَميلِ الصفات على انفراد كل صفة منها باردُ الطَّلْعةِ غيرُ مليحٍ، ولا حَسَنٍ، ولا رائعٍ، ولا حُلو.

ـ الروعة: بهاءُ الأعضاء الظاهرة مع جمال فيها، وهي ـ أيضًا ـ الفراهة والعتق.

ـ الحُسن: هو الشيء ليس له في اللغة اسمٌ يعبَّر به عنه، ولٰكنه محسوسٌ في النفوس باتفاقِ كلِّ مَن رآه، وهو بُرْدٌ مكسوٌّ على الوجه، وإشراقٌ يستميل القلوب نحوه، فتجتمعُ الآراءُ على استحسانه ـ وإن لم تكن هناك صفاتٌ جميلةٌ ـ ؛ فكل مَن رآه راقه واستحسنه وقَبِله؛ حتى إذا تأملتَ الصفاتِ إفرادًا لم ترَ طائلًا؛ وكأنه شيءٌ في نفس المرئيِّ يجدُه نفسُ الرائي؛ وهٰذا أجلُّ مراتبِ الصَّبَاحة.

ثم تختلف الأهواءُ بعد هٰذا؛ فمِن مُفضِّلٍ للروعة، ومن مفضِّلٍ للحلاوة، وما وجدنا أحدًا قط يفضِّلُ القوامَ المنفرد.

ـ المَلاحة: اجتماعُ شيءٍ فشيءٍ مما ذكرنا.

❁ ❁ ❁

(١) الصَّباحة: الجمال.

فصل: فيما يتعاملُ الناس به من الأخلاق

[التلوُّن المَذموم]

التلوُّنُ المذموم: هو التنقُّلُ مِن زيٍّ متكلَّفٍ لا معنى له، إلى زيٍّ آخَرَ مثلِه في التكلف، وفي أنه لا معنى له، ومِن حالٍ لا معنى لها، إلى حالٍ لا معنى لها ـ بلا سبب يوجب ذٰلك ـ . وأما مَن استعمل من الزيِّ ما أمكنه ـ مما به إليه حاجة ـ ، وتَرَكَ التزيُّدَ ـ مما لا يُحتاج إليه ـ ؛ فهٰذا عينٌ من عيون العقل والحكمةِ كبير.

وقد كان رسولُ اللَّه ﷺ ـ وهو القدوةُ في كل خير، والذي أثنى اللَّهُ تعالى على خُلُقِه، والذي جَمَع اللَّهُ تعالى فيه أشتاتَ الفضائل بتمامها، وأبعَدَهُ عن كل نقصٍ ـ : يعودُ المريضَ مع أصحابه راجلًا[1] في أقصى المدينة؛ بلا خُفٍّ ولا نَعلٍ ولا قلنسوةٍ ولا عمامة[2]، ويلبسُ الشعَرَ إذا حضره، وقد يلبس الوَشْي مِنَ الحِبَرَات إذا حَضَره، ولا يتكلفُ ما لا يحتاج إليه، ولا يتركُ ما يحتاج إليه، ويستغني بما وجد عما لا يجد.

ومرةً يمشي راجلًا حافيًا، ومرةً يلبسُ الخفَّ، ويركبُ البغلةَ الرائعةَ الشهباء، ومرةً يركبُ الفرس عَرِيًّا[3]، ومرةً يركبُ الناقة، ومرةً يركب حِمارًا ويُردِفُ عليه بعضَ أصحابه[4]، ومرةً يأكُلُ التمر دون خبزٍ، والخبزَ يابسًا، ومرةً يأكل العَناقَ[5] المشوية، والبِطيخَ بالرُّطَب والحَلْواء.

---

(١) راجلًا: سائرًا على رجليه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) عريًا: بلا فَرْش فوقه.

(٤) يُردف: يُركِبُ خلفه.

(٥) العَناق: أنثى الماعز.

يأخذُ القوت، ويبذُلُ الفضل[١]، ويتركُ ما لا يَحتاج إليه، ولا يَتكلَّفُ فوق مقدارِ الحاجة، ولا يغضبُ لنفسه، ولا يدَعُ الغضبَ لربِّه ﷻ.

[فصل: الثبات]

الثبات ـ الذي هو صحةُ العقد ـ ، والثباتُ ـ الذي هو اللَّجاج[٢] ـ : مشتبهان اشتباهًا لا يفرِّقُ بينهما إلا عارفٌ بكيفية الأخلاق.

والفرقُ بينهما: أن اللجاجَ هو ما كان على الباطل، أو ما فَعَله الفاعلُ نصرًا لِما نَشِب فيه[٣]، وقد لاح له فسادُه، أو لم يَلُحْ له صوابُه ولا فسادُه؛ وهٰذا مذموم، وضدُّه الإنصاف.

وأما الثباتُ ـ الذي هو صحةُ العقد ـ : فإنما يكونُ على الحق، أو على ما اعتقده المرءُ حقًّا ـ ما لم يَلُحْ له باطله ـ ، وهٰذا محمودٌ، وضده الاضطراب.

وإنما يُلامُ بعضُ هٰذين لأنه ضيَّع تدبُّرَ ما ثَبتَ عليه، وتَرَكَ البحثَ عما التزم: أحقٌّ هو أم باطل!.

[فصل: حقيقة العقل والحُمق]

حدُّ «العقل»: استعمالُ الطاعات والفضائل، وهٰذا الحدُّ ينطوي فيه اجتنابُ المعاصي والرذائل. وقد نصَّ اللَّهُ تعالى ـ في غير موضع من كتابه ـ على أنَّ مَن عصاه لا يعقل.

قال اللَّه تعالى ـ حاكيًا عن قوم ـ : ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾، ثم قال اللَّه تعالى ـ مصدِّقًا لهم ـ : ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [المُلك].

---

(١) الفضل: الزائد عن حاجات أهله الضرورية.

(٢) اللَّجاج: الغضب والمخاصمة.

(٣) نشب فيه: تعلق به.

وحَدُّ «الحُمق»: استعمالُ المعاصي والرذائل.

وأما التعدِّي وقذفُ الحجارة والتخليطُ في القول؛ فإنما هو جنونٌ ومَرارٌ هائج[(١)].

وأما الحمقُ، فهو ضدُّ العقل ـ وهما ما بيَّنَّا آنفًا ـ، ولا واسطةَ بين العقل والحمق إلا السُّخْف.

وحدُّ «السُّخْف»: هو العملُ والقولُ بما لا يُحتاج إليه في دينٍ ولا دنيا، ولا حَميدِ خُلقٍ مما ليس معصيةً ولا طاعةً، ولا عونًا عليهما، ولا فضيلةً، ولا رذيلةً مؤذية؛ ولٰكنه مِن هَذَر القول وفضولِ العمل.

فعلى قدْرِ الاستكثارِ من هٰذين الأمرين ـ أو التقلُّلِ منهما ـ يستحقُّ المرءُ اسمَ «السُّخف». وقد يَسخُف المرءُ في قضيةٍ ويَعقِلُ في أخرى، ويَحمُق في ثالثة.

وضدُّ «الجنون»: تمييز الأشياء، ووجودُ القوة على التصرُّف في المعارف والصناعات؛ وهٰذا الذي يسمِّيه الأوائل: «النطق» ولا واسطه بينهما.

وأمّا إحكامُ أمر الدنيا، والتوددُ إلى الناس بما وافقهم وصَلَحت عليه حالُ المتودِّدِ من باطلٍ أو غيره، أو عيبٍ أو ما عداه، والتحيُّلُ في إنماءِ المال وبُعدِ الصوت، وتثبيتِ الجاه بكلِّ ما أمكن من معصيةٍ ورذيلة: فليس عقلًا.

ولقد كان الذين صدَّقهم اللّٰهُ في أنهم لا يعقلون، وأخبَـرَنا بأنهم لا يعقلون: سائسين لدنياهم، مُثمِّرين لأموالهم، مُدارِينَ[(٢)] لملوكهم، حافظين لرياستهم! لٰكنَّ هٰذا الخُلقَ يسمَّى «الدهاء»، وضده: «العقل والسلامة».

وأما إذا كان السعيُ فيما ذكرنا بما فيه تصاونٌ وأَنَفةٌ، فهو يسمى «الحزم»، وضده المنافي له: «التضييع».

---

(١) أي: دليل على مرارة هائجة في الباطن.

(٢) المداراة: عدم المقابلة بالإساءة.

وأما الوقار، ووضعُ الكلام موضعه، والتوسُّطُ في تدبير المعيشة، ومسايرةُ الناس بالمسالمة: فهٰذه الأخلاق تسمى «الرزانة»، وهي ضدُّ السخف.

والوفاءُ مركَّبٌ من العدل والجُود والنجدة؛ لأن الوفيَّ رأى من الجورِ ألَّا يقارضَ مَن وَثِقَ به أو من أحسنَ إليه، فعَدَل في ذلك، ورأى أن يسمَحَ بعاجل يقتضيه له عدمُ الوفاء من الحظ، فجاد في ذلك[1]، ورأى أن يتجلَّدَ لِمَا يتوقعُ من عاقبةِ الوفاء، فشجع في ذلك.

[فصل: أصول الفضائل]

أصولُ الفضائل كلِّها أربعة؛ عنها تتركبُ كلُّ فضيلة، وهي: العدل، والفهم، والنجدة، والجود.

وأصولُ الرذائل كلِّها أربعة؛ عنها تتركبُ كلُّ رذيلة ـ وهي أضداد التي ذكرنا ـ، وهي: الجَور، والجهل، والجُبن، والشح.

[فصل: الأمانة والعفّة]

الأمانةُ والعفة نوعانِ من أنواع العدل والجود.

ومما قلتُه في الأخلاق:

إنما العقلُ أساسٌ	فوقَه الأخلاقُ سُورْ
فحَلِّ العقلَ بالعلـ	ـم وإلَّا فهْو بُورْ
جاهلُ الأشياءِ أعمى	لا يَرى كيف يدورْ
وتَمامُ العلمِ بالعد	لِ وإلَّا فهو زُورْ
وزِمامُ العدلِ بالجُـ	ـود وإلَّا فيجورْ

(١) جاد: تفضَّل.

ومِـــلاكُ الجـــودِ بالـــنَّجْـ ـــدَةِ والجُـــبنُ غـــرورْ
عِـــفَّ إن كـــنتَ غـــيُورًا مـــا زنـــى قـــطُّ غـــيُورْ
وكمـــالُ الكـــلِّ بالـــتقـــ ـــوى وقـــولُ الحـــقِّ نـــورْ
ذي أصـــولُ الفـــضل عـــنـــها حَـــدَثت بعـــدُ الـــبُذورْ

ومما قلتُه ـ أيضًا ـ:

زمـامُ أصـولِ جميعِ الفضائلِ عـدلٌ وفهـمٌ وجـودُ وبـاسُ
فمِـن هٰـذه رُكِّـبت غيرُها فمن حازهـا فهـو في الـناس راسُ
كـذا الـرأسُ فـيه الأمـورُ التي بإحـساسها يُكـشفُ الالتباسُ

[فصل: حقيقة النزاهة]

النزاهةُ في النفس فضيلةٌ تركَّبت من النجدة والجود، وكذٰلك الصبر.

والحلمُ نوعٌ مفردٌ من أنواع النجدة، والقناعةُ فضيلةٌ مركَّبةٌ من الجود والعدل، والحرصُ متولِّدٌ عن الطمع، والطمعُ متولِّدٌ عن الحسد، والحسدُ متولدٌ عن الرغبة، والرغبةُ متولدةٌ عن الجَور والشُّحِ والجهل.

ويتولَّدُ من الحرص رذائلُ عظيمةٌ؛ منها: الذل، والسرقة، والغَصب، والزنا، والقتل، والعِشق، والهمُّ بالفقر.

والمسألةُ لِمَا بأيدي الناس تتولدُ فيما بين الحرص والطمع، وإنما فرَّقْنا بين الحرص والطمع لأنَّ الحرصَ هو بإظهار ما استَكنَّ في النفس مِن الطمع.

والمداراةُ فضيلةٌ متركبةٌ منَ الحلم والصبر.

والصدقُ مركَّبٌ من العدل والنجدة.

[فصل: احذر النمَّام]

مَن جاء إليك بباطل، رجع من عندك بحق؛ وذٰلك أنَّ مَن نَقل إليك كذِبًا عن إنسان، حرَّك طبعك فأجبتَـه، فرجع عنـك بحقٍّ؛ فتحفَّظْ مِن هٰذا، ولا تُجِبْ إلَّا عن كلامٍ صحَّ عندك عن قائله(١).

[فصل: لا شيءَ أقبحُ من الكذِب]

لا شيءَ أقبحُ من الكذب؛ وما ظنُّك بعيبٍ يكون الكفرُ نوعًا من أنواعه؟! فكلُّ كفرٍ كذبٌ؛ فالكذبُ جنس، والكفرُ نوعٌ تحته.

والكذبُ متولِّدٌ منَ الجَور والجُبن والجهل؛ لأن الجُبنَ يولِّدُ مهانةَ النفس، والكذابُ مَهينُ النفس، بعيدٌ عن عزَّتِها المحمودة.

[فصل: أقسامُ الناس في الكلام]

رأيتُ الناس في كلامهم ـ الذي هو فصلٌ بينهم وبين الحمير والكلاب والحشرات(٢) ـ يَنقسِمون أقسامًا ثلاثة:

أحدها: مَن لا يُبالي فيما أنفق كلامه؛ فيتكلمُ بكل ما سَبق إلى لسانِه غيرَ محقِّقٍ نَصْرَ حقٍّ، ولا إنكارَ باطل. وهٰذا هو الأغلبُ في الناس.

والثاني: أن يتكلم ناصرًا لما وَقع في نفسه أنه حقٌّ، ودافعًا لِمَا توهم أنه باطل؛ غير محقِّقٍ لطلب الحقيقة؛ لٰكن لَجَاجًا فيما التزم. وهٰذا كثيرٌ، وهو دون الأول.

والثالث: واضعُ الكلام في موضعه، وهٰذا أعزُّ من الكبريت الأحمر.

---

(١) راجع التعليق ص(٣٨).

(٢) بل الحيوانات تتكلم بكلام لا نفقهُه؛ كما دلت أدلةٌ عديـدةٌ مـن الكتـاب والسنة، وليس هٰذا موضع البسط.

[فصل: من هو أطولُ الناس هَمًّا؟]

لقد طال همُّ مَن غاظه الحقُّ[١].

[فصل: أكثر الناس راحةً في الدنيا؟]

اثنان عظُمت راحتهما؛ أحدهما في غاية المدح، والآخرُ في غاية الذم؛ وهما: مُطَّرِحُ الدنيا، ومُطَّرَحُ الحياء.

[فصل: من أسباب الزهد في الدُّنيا]

لو لم يكن من التزهيدِ في الدنيا إلَّا أن كلَّ إنسانٍ في العالَم فإنه كلَّ ليلةٍ إذا نام نَسِيَ كلَّ ما يُشفِقُ عليه في يقظته، وكلَّ ما يشفقُ منه، وكلَّ ما يَسُرَّهُ إليه؛ فتجدُه في تلك الحال لا يَذكُرُ ولدًا ولا أهلًا، ولا جاهًا ولا خُمولًا، ولا ولايةً ولا عَزْلًا، ولا فقرًا ولا غِنًى، ولا مصيبةً؛ وكفى بِهٰذا واعظًا لمن عقل.

[فصل: من عجائب سُنَن اللهِ تعالى في الحياة]

مِن عجيب تدبير اللَّه ﷻ للعالَم: أن كل شيءٍ اشتدَّت الحاجةُ إليه كان ذٰلك أهونَ له[٢]، وتأمَّلْ ذٰلك في الماء فما فوقه.

وكلُّ شيء اشتدَّ الغِنى عنه كان ذٰلك أعزَّ له، وتأمل في الياقوت الأحْمر فما دونه.

[فصل: أحوال الناس]

الناسُ فيما يُعانونه كالماشي في الفلاة؛ كلما قَطع أرضًا بدت له أرَضون، وكلما قَضى المرءُ سببًا حَدثت له أسباب.

---

(١) لأن الحق لابد أن يظهَر ويسود، فكل كارهٍ له سيطول هَمُّه ونكدُه.

(٢) أي: أحقر.

[فصل: العاقل معذَّبٌ في الدنيا ومستريح]

صَدَق مَن قال: «إنَّ العاقل معذَّبٌ في الدنيا». وصدق من قال: «إنه فيها مستريح».

فأما تعبُه: ففيما يَرى من انتشار الباطل وغلبةِ دولتِه، وبما يُحال بينه وبينه من إظهار الحق.

وأما راحته: فمِن كلِّ ما يهتمُّ به سائرُ الناس من فضول الدنيا.

[فصل: إياك وكلَّ ما يضرُّك عند ربِّك]

إياك وموافقةَ الجليس السيئ، ومساعدةَ أهلِ زمانك فيما يضُرُّك في أُخراك أو في دنياك ـ وإن قلَّ ـ ؛ فإنك لا تستفيدُ بذٰلك إلَّا الندامةَ حيث لا ينفعك الندم، ولن يحمَدَك مَن ساعدته؛ بل يَشمَتُ بك. وأقلُّ ما في ذٰلك ـ وهو المضمون ـ : أنه لا يبالي بسوء عاقبتك وفسادِ مَغبَّتك(١).

وإياك ومخالفةَ الجليس، ومعارضةَ أهلِ زمانك فيما لا يضُرُّك في دنياك ولا في أُخراك ـ وإن قل ـ ؛ فإنك تستفيد بذٰلك الأذى والمنافرةَ والعداوةَ، وربما أدَّى ذٰلك إلى المطالبةِ والضررِ العظيم؛ دون منفعةٍ أصلًا.

[فصل: أرضِ اللهَ وكفى]

إن لم يكن بدٌّ من إغضاب الناس، أو إغضابِ اللّٰه ﷻ، ولم يكن لك مندوحةٌ(٢) عن منافرةِ الخلق أو منافرةِ الحق؛ فأغضِبِ الناسَ ونافِرْهم، ولا تُغضِبْ ربَّك، ولا تنافِرِ الحق.

---

(١) المغبة: العاقبة.

(٢) المندوحة: المتَّسع والمفر.

[فصل: الاقتداء بالحبيب ﷺ أصل الفضائل]

الاتساءُ بالنبي ﷺ في وعظِ أهـل الجهـل والمعـاصي والرذائل واجبٌ؛ فمن وَعظ بالجفاء والاكفهرار[١] فقد أخطأ وتعدَّى طريقته ﷺ، وصار في أكثر الأمر مُغرِيًا للموعوظ بالتمادي على أمره لَجاجًا وحَرْدًا[٢] ومغايظةً للواعظ الجافي؛ فيكونُ في وعظه مسيئًا لا محسنًا.

ومَن وَعظ بِبِشرٍ وتبسُّمٍ ولِين ـ وكأنه مشيرٌ برأيٍ ومخبرٌ عن غير الموعوظ بما يستقبحُ من الموعوظ ـ: فذلك أبلغُ وأنجعُ في الموعظة؛ فإن لم يتقبَّلْ فلينتقِلْ إلى الوعظ بالتحشيم[٣]، وفي الخلاء؛ فإن لم يقبل ففي حضرةِ مَن يَستحي منه الموعوظ؛ فهٰذا أدبُ اللّٰه في أمره بالقول واللين.

وكان ﷺ لا يواجهُ بالموعظة[٤]؛ لٰكن كان يقول: «ما بالُ أقوامٍ يَفعلون كذا؟!»[٥].

وقد أثنى عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ على الرفق[٦]، وأمر بالتيسير، ونَهَى عن التنفير[٧]،

---

(١) الاكفهرار: عبوس الوجه.

(٢) اللجاج: الغضب. الحَرْد: الحقد.

(٣) التحشيم: الاحترام.

(٤) ليس هٰذا مطلقًا، بل سيرتُه تبيِّنُ أنه ﷺ كان كثيرًا ما يواجه بالنصيحة؛ خاصةً فيما تعلق بأمورٍ عامة؛ كقوله لأسامة رضي الله عنه ـ حين قتل من قال كلمة التوحيد ـ على الملأ: «أقال: «لا إلٰه إلا اللّٰه»؛ وقتلته؟!»، وغير هٰذا كثير. والحديث صحيح: أحمد (٥/ ٢٠٧)، والبخاري (٤٠٢١)، ومسلم (٩٦)، وأبو داود (٢٦٤٣).

(٥) صحيح: رواه أحمد (٣/ ٦٢، ٢٤١، ٢٥٩)، والبخاري (٤٤٤، ٧١٧، ٢٥٨٤)، ومسلم (١٤٠١، ١٥٠٤، ٢٣٥٦)، وأبو داود (٩١٣، ٤٧٨٨)، والترمذي (٢١٢٤)، والنسائي (١١٩٣، ٣٢١٧، ٣٤٥١)، وابن ماجه (٢٠١٧).

(٦) صحيح: رواه أحمد (١/ ١١٢) و(٤/ ٨٧) و(٦/ ٣٧)، والبخاري (٥٦٧٨) و(٥٩٠١)، ومسلم (٢١٦٥، ٢٥٩٣)، وأبو داود (٤٨٠٧)، والترمذي (٢٧٠١)، وابن ماجه (٣٦٨٨).

(٧) صحيح: رواه أحمد (٣/ ١٣١)، والبخاري (٦٩)، ومسلم (١٧٣٤)، وأبو داود (٤٨٣٥).

وكان يتخوَّلُ بالموعظة[١] خوفَ الملل[٢]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وأما الغلظةُ والشدة؛ فإنما تجبُ في حدٍّ من حدود اللَّه تعالى؛ فلا لِينَ في ذٰلك للقادرِ على إقامةِ الحد ـ خاصةً ـ.

ومما ينجعُ في الوعظ ـ أيضًا ـ: الثناءُ ـ بحضرة المُسيء ـ على مَن فعل خلافَ فِعلِه؛ فهٰذا داعيةٌ إلى عمل الخير. وما أعلم لحبِّ المدح فضلًا إلَّا هٰذا وحده؛ وهو أن يقتديَ به مَن يسمع الثناء؛ ولهٰذا يجبُ أن تؤرَّخَ الفضائلُ والرذائلُ لِيَنفِرَ سامعُها عن القبيح المأثور عن غيره، ويَرغَبَ في الحَسَنِ المنقول عمن تقدَّمَه، ويتعظَ بما سلف.

[فصل: كلُّ شيءٍ يَجذبُ غيرَه إليه]

تأملتُ كلَّ ما دون السماء، وطالت فيه فكرتي؛ فوجدتُ كلَّ شيءٍ فيه ـ مِن حيٍّ وغيرِ حي ـ من طبعه ـ إن قَوِيَ ـ أن يخلعَ على[٣] غَيره من الأنواع كيفياتِه، ويُلبِسَه صفاتِه؛ فترى الفاضل يودُّ لو كان كلُّ الناسِ فضلاء، وترى الناقصَ يودُّ لو كان الناسُ نُقَصَاء، وترى كلَّ مَن ذكر شيئًا يحض عليه ويقول: «وأنا أفعل أمرَ كذا»، وكلُّ ذي مذهبٍ يودُّ لو كان الناسُ موافقين له.

وترى ذٰلك في العناصر؛ إذا قَوِيَ بعضُها على بعضٍ أحاله إلى نوعيته، وترى ذٰلك في تركيبِ الشجر، وفي تغذِّي النبات والشجر بالماء ورطوبة الأرض، وإحالتهما ذٰلك إلى نوعيتهما! فسبحانَ مخترِعِ ذٰلك ومدبِّرِه؛ لا إلٰه إلا هو.

---

(١) يتخوَّل: يتعاهد بين حين وآخر.

(٢) صحيح: رواه أحمد (١/ ٣٧٧)، والبخاري (٦٨)، ومسلم (٢٨٢١)، والترمذي (٢٨٥٥).

(٣) في المطبوع: «عن»، ولعل الأصح ما أثبتُّه.

[فصل: عظمةُ اللهِ تعالى في تفاوتِ المخلوقات]

مِن عجيبِ قُدرةِ اللَّه تعالى: كثرةُ الخلق؛ ثم لا ترى أحدًا يُشبِهُ آخَرَ شبهًا لا يكون بينهما فيه فرق! وقد سألتُ مَن طال عمرُه وبلغ الثمانين عامًا: هل رأى الصورَ فيما خلا مُشبِهةً لهٰذه[1] شبهًا واحدًا؟ فقال لي: «لا؛ بل لكلِّ صورةٍ فرْقُها». وهٰكذا كلُّ مَن في العالَم يَعرف ذلك.

[فصل: من دلائل القُدرة]

مَن تدبَّر الآلاتِ وجميعَ الأجسام المركَّبات، وطال تكرُّرُ بصرِه عليها: فإنه حينئذٍ يميِّزُ ما بينها، ويعرفُ بعضها من بعضٍ بفروقٍ فيها تعرفُها النفسُ، ولا يقدرُ أحدٌ يعبِّرُ عنها بلسانه؛ فسبحانَ العزيزِ الحكيم الذي لا تتناهى مقدوراتُه.

[فصل: الآمالُ الفاسدة]

مِن عجائب الدنيا: قومٌ غلبت عليهم آمالٌ فاسدة؛ لا يحصُلون منها إلَّا على إتعاب النفس عاجلًا، ثم الهمِّ والإثم آجلًا؛ كمن يتمنَّى غلاءَ الأقوات التي في غلائها هلاكُ الناس، وكمن يتمنَّى بعضَ الأمور التي فيها الضررُ لغيره ـ وإن كانت له فيها منفعة ـ؛ فإنَّ تأميله ما يؤمِّلُ من ذٰلك لايعجِّلُ له ذٰلك قبلَ وقته، ولا يأتيه مِن ذٰلك بما ليس في عِلم اللَّه تعالى تكوُّنُه؛ فلو تمنَّى الخير والرخاءَ لتعجَّل الأجرَ والراحةَ والفضيلة، ولم يُتعِبْ نفسه طرْفةَ عينٍ فما فوقها؛ فاعجَبوا لفسادِ هٰذه الأخلاق بلا منفعة!.

❁ ❁ ❁

---

(١) أي: الموجودة في زمن ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ.

فصلٌ: في أدواءِ الأخلاقِ الفاسدةِ ومُداواتِها

[علاجُ العُجْب]

مَن امتُحن بالعُجب فلْيُفكِّرْ في عيوبه؛ فإنْ أُعجب بفضائله فلْيُفتِّشْ ما فيه من الأخلاق الدنيئة؛ فإن خَفِيت عليه عيوبُه جُملةً ـ حتى يظُنَّ أنه لا عيبَ فيه ـ؛ فلْيَعلم أن مصيبتَه إلى الأبد(١)، وأنه أَتمُّ الناس نقصًا وأعظمُهم عيوبًا، وأضعفُهم تمييزًا؛ وأولُ ذٰلك أنه ضعيفُ العقل جاهلٌ، ولا عيب أشد من هٰذين؛ لأن العاقل هو من مَيَّز عيوبَ نفسه فغالَبَها، وسعى في قَمْعها، والأحمقَ هو الذي يجهلُ عيوب نفسه؛ إما لقِلةِ علمه وتمييزِه وضَعفِ فكرته، وإما لأنه يُقدِّرُ أن عيوبه خصالٌ(٢)؛ وهٰذا أشدُ عيب في الأرض.

وفي الناس كثيرٌ يَفخَرون بالزنا واللِّياطة(٣) والسرقة والظلم، فيَعجَبُ بتأتِّي(٤) هٰذه النحُوسِ له، وبقوَّته على هٰذه المخازي.

واعلمْ يقينًا: أنه لا يَسلمُ إنسيٌّ من نقصٍ ـ حاشا الأنبياءَ صلواتُ اللّٰه عليهم ـ؛ فمَن خَفِيت عليه عيوبُ نفسه فقد سقط، وصار من السُّخف والضَّعةِ والرَّذالة والخسَّة وضعفِ التمييز والعقل وقلَّةِ الفهم؛ بحيث لا يتخلفُ عنه متخلفٌ من الأرذال، وبحيث ليس تحته منزلةٌ من الدناءة؛ فلْيتدارَكْ نفسه بالبحث عن عيوبه والاشتغالِ بذٰلك عن الإعجاب بها، وعن عيوب غيره التي لا تضرُّه في الدنيا ولا في الآخرة.

وما أدري لسماعِ عيوبِ الناس خصلةً إلَّا الاتعاظَ بما يَسمعُ المرء منها

---

(١) أي: دائمة.

(٢) أي: خصالٌ حَميدة.

(٣) اللياطة: اللواط.

(٤) تأتِّي: موافقة وتيسير.

فيجتنبَها، ويسعى في إزالةِ ما فيه منها ـ بحول اللَّه تعالى وقوته ـ.

وأما النطقُ بعيوب الناس؛ فعيبٌ كبيرٌ لا يسوغ أصلًا، والواجبُ اجتنابُه إلَّا في نصيحةِ مَن يتوقعُ عليه الأذى بمداخلةِ المَعيب، أو على سبيل تبكيت المعجَبِ فقط في وجهه ـ لا خلف ظهره ـ؛ ثم يقول للمعجَب: ارجع إلى نفسك، فإذا ميَّزتَ عيوبها فقد داويت عُجْبَك، ولا تمثِّل بين نفسك وبين مَن هو أكثرُ عيوبًا منها فتستسهلَ الرذائل، وتكونَ مقلِّدًا لأهل الشر، وقد ذُمَّ تقليدُ أهل الخير، فكيف تقليدُ أهل الشر؟! لٰكن مثِّل بين نفسك وبين مَن هو أفضلُ منك؛ فحينئذٍ يَتلَفُ عُجبُكَ، وتُفيقُ من هٰذا الداء القبيح الذي يولِّدُ عليك الاستخفافَ بالناس؛ وفيهم ـ بلا شك ـ مَن هو خيرٌ منك. فإذا استخففت بهم بغير حقٍّ استخفُّوا بك بحقٍّ؛ لأن اللَّه تعالى يقول: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، فتُولِّدُ على نفسك أن تكون أهلًا للاستخفاف بك على الحقيقة، مع مقتِ اللَّه ﷻ وطَمْسِ ما فيك من فضيلة.

فإن أُعجبت بعقلك؛ ففكِّر في كل فكرةِ سُوء تحُلُّ بخاطرك، وفي أضاليلِ الأمانيِّ الطائفةِ بك؛ فإنك تعلمُ نَقصَ عقلِك حينئذٍ.

وإن أُعجبت بآرائك؛ فتفكَّرْ في سقَطاتك، واحفَظْها ولا تَنْسَها، وفي كلِّ رأيٍ قدَّرتَه صوابًا فخرج بخلاف تقديرك، وأصاب غيرُك وأخطأت أنت.

فإنك إن فعلت ذٰلك فأقلُّ أحوالك أن يُوازَنَ[١] سقوطُ رأيك بصوابه؛ فتخرجُ لا لك ولا عليك، والأغلبُ أن خطأكَ أكثرُ من صوابك، وهٰكذا كلُّ أحدٍ منَ الناس بعد النبيين ـ صلوات اللَّه عليهم ـ.

وإن أُعجبت بعملك؛ فتفكَّرْ في معاصيك، وفي تقصيرك، وفي معاشك ووجوهه؛ فواللَّهِ لَتجِدَنَّ مِن ذٰلك ما يَغلِبُ على خيرك ويُعفِّي على حسناتك؛

---

(١) يوازَن: يقاس.

فلْيَطُل هَمُّك حينئذٍ من ذٰلك، وأبدِلْ من العُجب تنقصًّا لنفسك.

وإن أُعجِبْتَ بعِلمك؛ فاعلم أنه لا خصلةَ لك فيه؛ وأنه موهبةٌ منَ اللّٰه مجردةٌ وَهَبَك إياها ربُّك تعالى؛ فلا تقابِلْها بما يُسخِطُه؛ فلعله يُنسِيك ذٰلك بعلةٍ يمتحنك بها تُولِّدُ عليك نسيانَ ما عَلِمتَ وحفظتَ.

ولقد أُخبرتُ عن عبدُالملك بن طَرِيف ـ وهو من أهل العلم والذكاء واعتدال الأحوال وصحة البحث ـ : أنه كان ذا حظٍّ من الحفظ عظيم ـ لا يكادُ يمُرُّ على سمعِه شيءٌ يحتاج إلى استعادته ـ ، وأنه ركب البحر، فمرَّ به فيه هولٌ شديدٌ أنساه أكثرَ ما كان يحفظ، وأخلَّ بقوةِ حفظه إخلالًا شديدًا لم يعاوِدْه ذٰلك الذكاء بعدُ.

وأنا أصابتني علةٌ؛ فأفقتُ منها وقد ذهب ما كنت أحفظُ إلَّا ما لا قَدْرَ له، فما عاودتُه إلا بعد أعوام.

واعلمْ أن كثيرًا من أهل الحرص على العلم يجِدُّون في القراءة والإكباب على الدروس والطلب، ثم لا يُرزَقون منه حظًّا؛ فلْيعلمْ ذو العلم أنه لو كان بالإكباب وحدَه لكان غيرُه فوقه، فصحَّ أنه موهبةٌ من اللّٰه تعالى؛ فأي مكانٍ للعُجب ها هنا! ما هٰذا إلَّا موضعُ تواضعٍ وشكرٍ للّٰه تعالى، واستزادةٍ من نِعَمِه، واستعاذةٍ من سَلْبها.

ثم تفكَّرْ ـ أيضًا ـ في أنَّ ما خَفِي عليك وجهلتَه من أنواع العلم الذي تختصُّ به، والذي أُعجبتَ بنفاذك فيه أكثرُ مما تعلمُ من ذٰلك؛ فاجعل مكان العُجْبِ استنقاصًا لنفسك واستقصارًا لها؛ فهو أولى، وتفكَّرْ فيمن كان أعلمَ منك، تجدهم كثيرًا؛ فلْتَهُنْ نفسُك عندك حينئذٍ.

وتَفكَّرْ في إخلالك بعِلمك، وأنك لا تعملُ بما علمتَ منه، فلِعِلمِك عليك حجةٌ حينئذٍ، ولقد كان أسلمَ لك لو لم تكن عالمًا[١].

(١) بل العلم خيرٌ للعبد على كل حال؛ فلعله يتوب يومًا من الأيام.

واعلم أن الجاهلَ ـ حينئذٍ ـ أعقلُ منك، وأحسن حالًا وأعذر؛ فليَسقُط عُجبُك بالكلية.

ثم لعلَّ عِلمَك الذي تَعجَبُ بنفاذك فيه من العلوم المتأخرة؛ التي لا كبير خصلةٍ فيها ـ كالشِّعْر وما جرى مجراه ـ ، فانظر حينئذٍ إلى مَن عِلمُه أجلُّ من علمك في مراتب الدنيا والآخرة، فتهونَ نفسُك عليك.

وإن أُعجبت بشجاعتك؛ فتفكَّرْ فيمن هو أشجع منك، ثم انظر في تلك النجدةِ التي مَنحك اللَّهُ تعالى: فيم صرَّفتها؟ فإن كنت صرفتَها في معصيةٍ فأنت أحمق؛ لأنك بذلتَ نفسك فيما ليس ثمنًا لها، وإن كنت صرفتَها في طاعةٍ فقد أفسدتَها بعُجْبك.

ثم تفكر في زوالها عنك بالشيخوخة، وأنك إن عشتَ فستصيرُ مِن عَدَد العِيال وكالصَّبيِّ ضعفًا؛ على أني ما رأيت العُجْبَ في طائفةٍ أقلَّ منه في أهل الشجاعة، فاستدللت بذٰلك على نزاهةِ أنفسهم ورفعتِها وعلوِّها.

وإن أُعجبت بجاهك في دنياك؛ فتفكَّرْ في مُخالِفيك وأندادِك ونُظرائِك، ولعلَّهم أخسَّاءُ وضعفاءُ سُقَّاط، فاعلمْ أنهم أمثالك فيما أنت فيه، ولعلَّهم ممن يُستحيا من التشبُّه بهم لفرط رَذالتهم وخساستهم في أنفسهم وأخلاقهم ومَنابتهم، فاستهِنْ بكل منزلةٍ شاركك فيها من ذكرتُ لك.

وإن كنت مالكَ الأرض كلِّها، ولا مخالِفَ عليك ـ وهٰذا بعيدٌ جدًّا في الإمكان؛ فما نعلم أحدًا مَلَك معمورَ الأرض كلَّه على قِلَّتِه وضيقِ مساحته؛ بالإضافة إلى غامرها؛ فكيف إذا أُضيف إلى الفلَك المحيط ـ : فتفكَّرْ فيما قال ابن السَّمَّاك للرشيد ـ وقد دعا بحَضْرته بقَدَح فيه ماءٌ ليشربه ـ ، فقال له: «يا أمير المؤمنين، لو مُنِعتَ هٰذه الشَّرْبَةَ؛ بكم كنتَ ترضى أن تبتاعَها[1]؟ فقال له الرشيد: بمُلكي كله. قال: يا أمير المؤمنين، فلو مُنِعتَ خروجَها

(١) تبتاعها: تشتريها.

منك؛ بكم كنت ترضى أن تفتديَ من ذٰلك؟ قال: بمُلكي كله. قال: يا أمير المؤمنين، أتغتبط[1] بمُلكٍ لا يساوي بَولةً ولا شربةَ ماء!».

وصدق ابنُ السمَّاك رَحِمَهُ اللَّهُ.

وإن كنتَ مَلِكَ المسلمين كلِّهم؛ فاعلم أن ملكَ السُّودان[2] ـ وهو رجلٌ أسود رذلٌ مكشوفُ العورة جاهل ـ يملكُ أوسعَ من مُلكك.

فإن قلت: «أنا أخذتُه بحقٍّ»! فلَعمري ما أخذتَه بحقٍّ إذ استعملت فيه رذيلة العُجْب، وإذ لم تعدل فيه، فاستحيْ من حالك؛ فهي حالةُ رَذالةٍ؛ لا حالةٌ يجب العُجْب فيها.

وإن أُعجبت بمالك؛ فهٰذه أسوأُ مراتب العُجْب؛ فانظر في كل ساقطٍ خسيس، فهو أغنى منك؛ فلا تغتبط بحالةٍ يفوقُك فيها مَن ذكرتُ.

واعلم أن عُجبَك بالمال حُمقٌ؛ لأنه أحجارٌ لا تنتفع بها إلَّا أن تُخرجَها عن مُلكك بنفقتها في وجهها فقط، والمال ـ أيضًا ـ غادٍ ورائحٌ، وربما زال عنك ورأيتَه ـ بعينه ـ في يدِ غيرك.

ولعل ذٰلك يكونُ في يد عدوِّك؛ فالعُجبُ بمِثل هٰذا سُخفٌ، والثقةُ به غرورٌ وضعف.

وإن أُعجبت بحُسنك؛ ففكِّر فيما يولِّد عليك؛ مما نستحي نحن من إثباته، وتستحي أنت منه إذا ذهب عنك بدُخولك في السن؛ وفيما ذكرنا كفاية.

وإن أعجبت بمدحِ إخوانك لك؛ ففكر في ذمِّ أعدائك إياك! فحينئذٍ ينجلِي عنك العُجب؛ فإن لم يكن لك عدوٌّ فلا خير فيك، ولا منزلةَ أسقطُ مِن منزلةِ مَن لا عدوَّ له؛ فليست إلا منزلةُ مَن ليس للَّه تعالى عنده نعمةٌ يُحسد عليها ـ عافانا اللَّه ـ.

---

(١) تغتبط: تسعد.

(٢) السودان: السُّود.

فإنِ استحقرتَ عيوبك؛ ففكِّر فيها لو ظهرَتْ إلى الناس، وتَمَثَّل اطلاعَهم عليها؛ فحينئذٍ تخجل، وتعرفُ قَدْرَ نقصِك ـ إن كانت لك مُسكةٌ من تمييز[(١)] ـ.

واعلم بأنك إنْ تعلمتَ كيفيةَ تركيب الطبائع وتولُّدِ الأخلاق مِن امتزاجِ عناصرها المحمولةِ في النفس؛ فستقفُ من ذٰلك ـ وقوفَ يقين ـ على أنَ فضائلَك لا خصلةَ لك فيها، وأنها مِنحٌ من اللَّه تعالى لو مَنَحها غيرَك لكان مثلَك، وأنك لو وُكِلتَ إلى نفسك لعجزتَ وهلكت؛ فاجعلْ بدلَ عُجبِك بها شكرًا لواهبك إياها، وإشفاقًا مِن زوالها؛ فقد تتغيرُ الأخلاق الحميدةُ بالمرض وبالفقر وبالخوف وبالغضب وبالهَرَم.

وارحَم مَن مُنع ما مُنِحتَ، ولا تتعرضْ لزوال ما بك من النِّعم بالتعاصي على واهبها تعالى، وبأن تجعلَ لنفسك ـ فيما وَهَبك ـ خصلةً أو حقًّا؛ فتُقدِّرَ أنك استغنيتَ عن عصمته فتهلِكَ عاجلًا وآجلًا.

ولقد أصابتني علةٌ شديدة ولَّدت عليَّ رَبْوًا في الطِّحال شديدًا؛ فولَّد ذٰلك عليَّ من الضجر وضيقِ الخُلق وقلةِ الصبر والنزَق[(٢)] أمرًا حاسبتُ نفسي فيه؛ إذ أنكرتُ تبدُّلَ خُلُقي، واشتدَّ عَجَبي مِن مفارقتي لطبعي، وصحَّ عندي أن الطِّحالَ موضعُ الفرح؛ إذا فَسَد تولَّد ضدُّه.

وإن أُعجبتَ بنَسَبك؛ فهٰذه أسوأُ مِن كل ما ذكرنا؛ لأن هٰذا الذي أعجبتَ به لا فائدةَ له أصلًا في دنيا ولا آخرة.

وانظر: هل يدفعُ عنك جوعةً، أو يسترُ لك عورةً، أو ينفعُك في آخرتك؟! ثم انظر إلى مَن يساهِمُك[(٣)] في نسبِك ـ وربما فيما هو أعلى منه ـ ممن نالته

(١) المُسْكة: البقيَّة.

(٢) النَّزَق: الطيش.

(٣) يساهِمُك: يماثلك.

ولادةُ الأنبيـاء عليهم السلام، ثم ولادةُ الخلفـاء، ثم ولادة الفضـلاء مـن الصحابة والعلماء، ثم ولادةُ ملوكِ العَجَم من الأكاسرة والقياصرة، ثم ولادة التبابعة[(١)] وسائرِ ملوكِ الإسلام؛ فتأمَّلْ غُبَّراتِهم[(٢)] وبقاياهم، ومن يُدلي بمِثل ما تُدلي به من ذٰلك؛ تجدُ أكثرهم أمثالَ الكلاب خساسةً، وتَلْفَهُم[(٣)] في غاية السقوط والرَّذالة والتبدُّل والتحلِّي بالصفات المذمومة؛ فلا تغتبطْ بمنزلةٍ هم فيها نظراؤك أو فوقك.

ثم لعل الآباءَ الذين تفخـرُ بهم كانـوا فُسَّـاقًا وشَرَبةَ خُمورٍ وَلَاطَةً[(٤)] ومتعبِّثين ونَوكى[(٥)]؛ أطلقتِ الأيامُ أيديَهم بالظلم والجور، فأنتجوا ظُلمًا وآثارًا قبيحةً يبقى عارُهم بذٰلك على الأيام، ويَعظُمُ إثمُهم والندمُ عليها يوم الحساب.

فإن كان كذٰلك؛ فاعلم أن الذي أُعجبتَ به من ذٰلك داخلٌ في العيب والخِزي والعار والشَّنار؛ لا في الإعجاب.

فإن أُعجبت بولادةِ الفضلاء إياك؛ فما أخلَى يدَك من فضلهم ـ إن لم تكن أنت فاضلًا ـ ! وما أقلَّ غِناهم عنك في الدنيا والآخرة ـ إن لم تكن محسنًا ـ ! والناسُ كلُّهم أولادُ آدمَ الذي خلقه اللّٰهُ تعالى بيده، وأسكنه جنته، وأسجد له ملائكته، ولٰكن ما أقلَّ نفعَه لهم! وفيهم كلُّ مَعيبٍ وكلُّ فاسق وكلُّ كافر.

وإذا فكَّر العاقلُ في أن فضـلَ آبائـه لا يُقـرِّبُه من ربه تعالى، ولا يُكسِبُه وجاهةً لم يَحُزْها هو بسَعْدِه أو بفضلِه في نفسه ولا ماله؛ فأيُّ معنًى للإعجاب بما لا منفعةَ فيه؟! وهل المُعجَبُ بذٰلك إلَّا كالمُعجَبِ بمال جارِه وبجاه

(١) التبابعة: ملوك اليمن.
(٢) الغبَّرات: البقايا.
(٣) تلفهم: تجدهم.
(٤) لاطة: أهل لواط. واللّٰهُ أعلم.
(٥) نوكى: حَمقى.

غيرِه وبفرسٍ لغيره سَبَق كان على رأسه لجامُه! وكما تقول العامة في أمثالها: «كالغبيِّ يَزهو بذكاء أبيه»[١].

فإن تعدَّى بك العُجبُ إلى الامتداح؛ فقد تضاعف سقوطُك؛ لأنه قد عجز عقلُك عن مقاومة ما فيك من العُجب؛ هٰذا إنِ امتُدحتَ بحق؛ فكيف إن امتُدحتَ بالكذب! وقد كان ابنُ نوحٍ وأبو إبراهيم وأبو لهب ـ عمُّ النبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وعلى نوحٍ وإبراهيمَ وسلَّم ـ أقربَ الناس مِن أفضل خلق اللَّه تعالى من ولد آدم، وممن الشرفُ كلُّه في اتباعهم؛ فما انتفعوا بذٰلك! وقد كان فيمن وُلد لغير رَشْدَةٍ من الغاية في رياسةِ الدنيا ـ كزيادٍ وأبي مُسلم ـ، ومَن كان نهايةً في الفضل على الحقيقة؛ كبعض من نُجِلُّه عن ذكره في مثل هٰذا الفصل؛ ممن يُتقرَّبُ إلى اللَّه تعالى بحبه، والاقتداءِ بحميد آثاره.

وإن أُعجبتَ بقوةِ جسمك؛ فتفكَّرْ في أن البغل والحمار والثورَ أقوى منك وأحْملُ للأثقال.

وإن أُعجبت بخِفَّتك[٢] فاعلم أن الكلب والأرنب يفوقانِكَ في هٰذا الباب؛ فمن العَجَب العجيب إعجابُ ناطقٍ بخصلةٍ يفوقُه فيها غيرُ ناطق!.

واعلم أن مَن قدَّر في نفسه عُجبًا، أو ظنَّ لها على سائر الناس فضلًا؛ فلينظر إلى صَبره عند ما يدْهَمُه مِن همٍّ أو نكبةٍ أو وَجع أو دُمَّلٍ أو مصيبة؛ فإنْ رأى نفسه قليلةَ الصبر؛ فلْيعلمْ أن جميعَ أهل البلاء ـ من المجذومين[٣] وغيرهم من الصابرين ـ أفضلُ منه ـ على تأخُّر طبقتهم في التمييز ـ.

وإن رأى نفسه صابرةً؛ فلْيعلم أنه لم يأتِ بشيءٍ يَسبق فيه على ما ذكرنا؛ بل هو إما متأخرٌ عنهم في ذٰلك، أو مساوٍ لهم ولا مزيد.

---

(١) في بعض المطبوعات: «كالخَصِيِّ يَزهَى بذَكَرِ أبيه»!.

(٢) أي: خفة الجسد «الرشاقة».

(٣) الجُذام: مرض تساقط الأطراف ـ عياذًا باللَّهِ ـ.

ثم لْينظر إلى سيرتِه وعدْله أو جَوْره فيما خوَّله[١] اللَّهُ مِن نعمةٍ أو مالٍ أو خَوَلٍ[٢] أو أتباعٍ أو صحةٍ أو جاه؛ فإن وَجد نفسه مقصِّرةً فيما يلزمُه من الشكر لواهبه تعالى، ووجدها حائفةً[٣] في العدل: فلْيعلم أن أهل العدل والشكرِ والسيرةِ الحسنة ـ منَ المخوَّلين أكثرَ ممَّا هو فيه ـ أفضلُ منه.

فإن رأى نفسه ملتزمةً للعدل؛ فالعادلُ بعيدٌ عن العُجب ألبتة؛ لعلمه بموازينِ الأشياء ومقاديرِ الأخلاق، والتزامِه التوسُّطَ ـ الذي هو الاعتدال بين الطرفين المذمومين ـ ؛ فإن أُعجب لم يَعدل؛ بل قد مال إلى جَنْبَةِ الإفراط المذمومة.

واعلم أن التعسُّفَ[٤] وسوءَ المَلَكةِ[٥] لمن خوَّلك اللَّهُ تعالى أمره من رقيقٍ أو رعيةٍ: يدلَّانِ على خساسةِ النفس ودناءةِ الهمة وضعفِ العقل؛ لأن العاقلَ الرفيعَ النفسِ العاليَ الهمة إنما يغلبُ أكفاءه في القوة ونظراءَه في المَنَعة.

وأما الاستطالةُ على مَن لا يمكنُه المعارضة[٦]، فسقوطٌ في الطبع ورَذالةٌ في النفس والخُلق، وعجزٌ ومهانة.

ومَن فعل ذٰلك فهو بمنزلة مَن يتبجَّحُ بقتل جُرَذٍ أو بقتل بُرغوث، أو بفَرْكِ[٧] قُمَّلةٍ، وحسبُك بِهٰذا ضعةً وخساسة.

واعلم أن رياضةَ الأنفس أصعبُ من رياضة الأُسْد؛ لأن الأُسْدَ إذا سُجِنت

---

(١) خوَّله: فوَّض إليه ومكَّنه.

(٢) الخَوَل: الخدم.

(٣) حائفة: ظالمة.

(٤) التعسُّف: الظلم والسَّير في غير الطريق الصحيح.

(٥) سوء المَلَكة: سوء معاملة المملوكين.

(٦) أي: ظلم من لا يمكنه رد الإساءة إليك.

(٧) الفَرْك: السَّحْق.

في البيوت التي تَتخذُها لها الملوكُ؛ أُمِن شرُّها؛ والنفسُ ـ وإن سُجنت ـ لم يؤمن شرُّها.

[فصل: ثمراتُ العُجبِ وآثارُه]

العُجبُ أصلٌ يتفرع عنه التيهُ والزَّهْوُ والكِبر والنخوةُ والتعالي، وهٰذه أسماءُ واقعةٌ على معانٍ متقاربة؛ ولذٰلك صعُب الفرقُ بينها على أكثر الناس.

فقد يكون العُجبُ لفضيلةٍ في المعجَب ظاهرةٍ؛ فمِن معجبٍ بعِلمه؛ فيَكفهِرُّ ويتعالى على الناس، ومن معجَبٍ بعَمله فيرتفع، ومن معجَبٍ برأيه فيزهو على غيره، ومن معجبٍ بنسَبه فيتيهَ، ومِن معجبٍ بجاهه وعلوِّ حاله فيتكبرَ وينتخي[1].

وأقلُّ مراتب العُجب: أن تراه يتوقَّرَ عن الضحك في مواضعِ الضحك، وعن خِفةِ الحركات، وعن الكلام إلَّا فيما لابد له من أمور دنياه، وعيب هٰذا أقل مِن عيب غيره، ولو فعل هٰذه الأفاعيلَ على سبيل الاقتصار على الواجبات وتَرْكِ الفضول؛ لكان ذٰلك فضلًا وموجبًا لحَمده؛ ولٰكن إنما يفعل ذٰلك احتقارًا للناس، وإعجابًا بنفسه؛ فحصل له بذٰلك استحقاقُ الذم، و«**إنما الأعمالُ بالنيَّات، وإنما لكلِّ امرئٍ ما نَوى**»[2]؛ حتى إذا زاد الأمر ولم يكن هناك تمييزٌ يَحجُبُ عن توفيةِ العُجب حقَّه، ولا عقلٌ جيدٌ: حدث من ذٰلك ظهورُ الاستخفاف بالناس واحتقارُهم بالكلام وفي المعاملة؛ حتى إذا زاد ذٰلك وضعُف التمييز والعقلُ؛ ترقَّى ذٰلك إلى الاستطالةِ على الناس بالأذى باللسان والأيدي، والتحكُّمِ والظلم والطغيان، واقتضاءِ[3] الطاعةِ لنفسه،

---

(١) ينتخي: يصاب بالنخوة والغرور.

(٢) صحيح: رواه أحمد (١/ ٢٥)، والبخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧)، وأبو داود (٢٢٠١)، والترمذي (١٦٤٧)، والنسائي (٧٥)، وابن ماجه (٤٢٢٧).

(٣) الاقتضاء: الطلب.

والخضوعِ لها ـ إن أمكنه ذٰلك ـ ، فإن لم يقدر على ذٰلك امتَدح [نفسَه] بلسانه، واقتَصر على ذم الناس والاستهزاء بهم.

وقد يكون العُجبُ لغير معنًى، ولغير فضيلةٍ في المعجَب! وهٰذا من عجيبِ ما يقع في هٰذا الباب، وهو شيءٌ يسمِّيه عامتنا «التمترُك»[(١)]؛ وكثيرًا ما نراه في النساء وفيمن عقلُه قريبٌ من عقولهن منَ الرجال؛ وهو عُجبُ مَن ليس فيه خصلةٌ أصلًا ـ لا علمٌ، ولا شجاعةٌ، ولا علوُّ حال، ولا نسبٌ رفيع، ولا مالٌ يُطغيه ـ ، وهو يعلم ـ مع ذٰلك ـ أنه صِفرٌ من ذٰلك كلِّه؛ لأن هٰذه الأمورَ لا يَغلَطُ فيها من يقذف بالحجارة؛ وإنما يغلطُ فيها مَن له أدنى حظٌّ منها؛ فربما يتوهَّمُ ـ إن كان ضعيفَ العقل ـ أنه قد بلغ الغايةَ القصوى منها؛ كمَن له حظٌّ مِن علم؛ فهو يظنُّ أنه عالِمٌ كامل! أو كمن له نسبٌ مُعرِقٌ[(٢)] في ظَلَمةٍ، وتجدهم لم يكونوا ـ أيضًا ـ رفعاءَ في ظلمهم! فتجده لو كان ابنَ فرعون ذي الأوتاد؛ ما زاد على إعجابه الذي [هو] فيه! أو له شيءٌ من فروسية؛ فهو يقدِّرُ أنه يهزم عليًّا، ويأسِرُ الزبير، ويقتل خالدًا رضي الله عنهم! أو له شيءٌ من جاهٍ رَذْلٍ؛ فهو لا يرى الإسكندرَ على حاله، أو يكون قويًّا على أن يكسبَ ما يتوفرُ بيده مُوَيْل[(٣)] يفضُلُ عن قُوته؛ فلو أخذ بقَرْني الشمس لم يزدْ على ما هو فيه.

وليس يكثر العَجَبُ من هٰؤلاء ـ وإن كانوا عجبًا ـ ؛ لٰكن ممن لا حظَّ له مِن علم أصلًا، ولا نسبِ ألبتة، ولا مالٍ، ولا جاهٍ، ولا نجدة؛ بل تراه في كفالةِ غيره مُهتضِمًا[(٤)] لكل مَن له أدنى طاقة، وهو يعلم أنه خالٍ من كل

(١) في بعض المطبوعات: «التميز المتمندل»!.
(٢) مُعرِق: أصيل عريق.
(٣) مويل: مال قليل.
(٤) مهتضمًا: محتقرًا.

ذلك، وأنه لا حظَّ له في شيءٍ من ذٰلك؛ ثم هو مع ذٰلك في حالةِ المزهُوِّ التيَّاه!.

ولقد تسببتُ[(١)] إلى سؤالِ بعضهم ـ في رفقٍ ولينٍ ـ عن سبب علوِّ نفسه واحتقارِه الناس؛ فما وجدتُ عنده مزيدًا على أن قال لي: أنا حرٌّ؛ لستُ عبدَ أحد. فقلت له: أكثرُ من تراه يشاركُك في هٰذه الفضيلة؛ فهم أحرارٌ مثلُك؛ إلَّا قومًا من العبيد هم أطولُ منك يدًا، وأمرُهم نافذٌ عليك وعلى كثيرٍ من الأحرار! فلم أجد عنده زيادةً.

فرجعتُ إلى تفتيش أحوالهم ومراعاتِها، ففكرتُ في ذٰلك سنينَ لأعلمَ السببَ الباعث لهم على هٰذا العُجبِ ـ الذي لا سبب له ـ! فلم أزل أختبرُ ما تنطوي عليه نفوسُهم بما يبدو من أحوالهم ومِن مراميهم في كلامهم؛ فاستقر أمرُهم [عندي] على أنهم يُقدِّرون أن عندهم فضلَ عقل وتميزَ رأيٍ أصيل؛ لو أمكنتهم الأيامُ من تصريفه لوجدوا فيه متَّسعًا، ولأداروا الممالكَ الرفيعة، ولَبَانَ فضلُهم على سائر الناس، ولو مَلَكوا مالًا لأحسنوا تصريفَه؛ فمن هاهنا تسرَّب التِّيهُ إليهم، وسرى العُجبُ فيهم.

وهٰذا مكانٌ فيه للكلام شَغبٌ عجيبٌ ومعارضةٌ مُعترَضة؛ وهو أنه ليس شيءٌ من الفضائل كلما كان المرءُ منه أعرى قَوِي ظنُّه أنه قد استولى عليه واستمر يقينُه في أنه قد كَمُل فيه: إلا[(٢)] العقلَ والتمييز؛ حتى إنك تجدُ المجنونَ المُطبِق[(٣)] والسكرانَ الطافحَ يسخرانِ بالصحيح؛ والجاهلَ الناقصَ يهزأ بالحكماءِ وأفاضلِ العلماء؛ والصبيانَ الصغارَ يتهكَّمون بالكُهول؛ والسفهاءُ العيَّارون[(٤)] يستخفُّون بالعقلاءِ المُتصاونين؛ وضَعَفَةُ النساء

(١) تسبَّبت: توصلت.

(٢) هٰذا خبرُ «ليس» ـ قبل سطر ـ.

(٣) المطبق: الدائم التام.

(٤) العيَّارون: قطاع الطريق.

يَستنقِصْنَ عقولَ أكابر الرجال وآراءَهم!.

وبالجملة فكلما نَقَص العقلُ توهَّم صاحبُه أنه أوفرُ الناس عقلًا وأكملُ تمييزًا.

ولا يَعرِضُ هٰذا في سائر الفضائل؛ فإن العاريَ منها جُملةً يدري أنه عارٍ منها، وإنما يدخل الغلطُ على مَن له أدنى حظٍّ منها ـ وإن قلَّ ـ؛ فإنه يتوهَّمُ حينئذٍ ـ إن كان ضعيفَ التمييز ـ أنه عالي الدرجةِ فيه.

ودواءُ مَن ذكرنا: الفقرُ والخمول؛ فلا دواء لهم أنجعُ منه؛ وإلَّا فداؤهم وضررُهم على الناس عظيمٌ جدًّا؛ فلا تجدُهم إلَّا عيَّابينَ للناس وقَّاعين في الأعراض، مستهزئين بالجميع، مُجانِبين للحقائق، مكبِّين على الفضول.

وربما كانوا ـ مع ذٰلك ـ متعرِّضين للمشاتمةِ والمُهارشة[(١)]، وربما قَصدوا الملاطمةَ والمضاربةَ عند أدنى سبب يعرِضُ لهم.

وقد يكون العُجب كمينًا[(٢)] في المرء؛ حتى إذا حصل على أدنى مالٍ أو جاهٍ ظهر ذٰلك عليه؛ وعجز عقلُه عن قَمْعِه وستره.

ومِن ظريف ما رأيتُ في بعض أهل الضعفِ: أن منهم من يغلبُه ما يُضمرُ مِن محبةِ ولده الصغير وامرأتِه؛ حتى يصفَها بالعقل في المحافل، وحتى إنه يقول: «هي أعقلُ مني، وأنا أتبرَّكُ بوصيتها»! وأما مدحُه إياها بالجمال والحُسن والعافية فكثيرٌ في أهل الضعف جدًّا؛ حتى كأنه لو كان خاطِبَها ما زاد على ما يقول في ترغيب السامع في وصفِها، ولا يكون هٰذا إلَّا في ضعيفِ العقل عارٍ من العُجب بنفسه.

[فصل: إياك وتلك الأخلاق]

إياك والامتداح؛ فإن كلَّ مَن يسمعُك لا يُصدِّقك ـ وإن كنت صادقًا ـ؛ بل

(١) المهارشة: التعارك.

(٢) كمينًا: خفيًّا.

يجعلُ ما سمع منك مِن ذٰلك في أول معايبك.

وإياك ومدحَ أحدٍ في وجهه؛ فإنه فِعلُ أهل المَلَق وضَعَفَةِ النفوس.

وإياك وذمَّ أحدٍ ـ لا بحضرته ولا في مغيبه ـ؛ فلك في إصلاح نفسك شغل.

وإياك والتفاقُر[1]؛ فإنك لا تحصُل من ذٰلك إلَّا على تكذيبك أو احتقار من يَسمعُك، ولا منفعةَ لك في ذٰلك أصلًا إلا كُفرَ نعمةِ ربك تعالى وشكواه إلى من لا يرحَمُك.

وإياك ووصفَ نفسك باليسار[2]؛ فإنك لا تزيدُ على إطماعِ السامع فيما عندك. ولا تَزِدْ على شكر اللّٰه تعالى وذِكرِ فقرِك إليه وغناك عمن دونه؛ فإن هٰذا يُكسِبُك الجلالةَ والراحةَ منَ الطمع فيما عندك.

[فصل: العاقل لا يُخالِفُ حكمَ العقل الصحيح]

العاقلُ هو مَن لا يفارقُ ما أوجبه تمييزُه[3].

[فصل: لا تُطمعِ الناس فيما عندك]

مَن سبَّب للناس الطمعَ فيما عنده، لم يحصُلْ إلَّا على أن يبذُلَه لهم ـ ولا غايةَ لهٰذا[4] ـ، أو يمنعَهم فيلؤُمَ ويعادونه؛ فإذا أردت أن تعطيَ أحدًا شيئًا فليكن ذٰلك منكَ قبل أن يسألك؛ فهو أكرمُ وأنزهُ وأوجبُ للحمد.

[فصل: من عجائبِ الحسد]

مِن بديع ما يقعُ في الحسد: قولُ الحاسد ـ إذا سمع إنسانًا يُغرِبُ في علمٍ

---

(١) التفاقر: ادعاء الفقر.

(٢) اليسار: الغِنى.

(٣) أي: لا يفارق مقتضى الحكمة.

(٤) أي: لن يمكنه إعطاء الجميع.

ما ـ : «هٰذا شيءٌ بارد لم يُتقدَّم إليه، ولا قاله قبله أحد». فإن سمع مَن يُبيِّنُ ما قد قاله غيرُه قال: «هٰذا بارد وقد قيل قبله»!.

وهٰذه طائفةُ سُوء؛ قد نَصبت أنفُسَها للقعود على طريق العلم يصُدُّون الناس عنها؛ ليكثُرَ نظراؤُهم منَ الجهال.

[فصل: صاحبُ الطَّبْع الخبيث]

إن الحكيمَ لا تنفعُه حكمتُه عند الخبيث الطبع؛ بل يظنُّه خبيثًا مثلَه، وقد شاهدتُ أقوامًا ذَوِي طبائعَ رديئة، وقد تَصوَّرَ في أنفسهم الخبيثةِ أن الناس كلَّهم على مثل طبائعهم؛ لا يُصدِّقون أصلًا بأن أحدًا هو سالِمٌ من رذائلهم بوجهٍ من الوجوه، وهٰذا أسوأُ ما يكون من فسادِ الطبع والبُعد عن الفضل والخير. ومَن كانت هٰذه صفتَه لا ترجى له معافاةٌ أبدًا. وباللّٰه تعالى التوفيق.

[فصل: عظمةُ العَدْل]

العدلُ حصنٌ يَلجأ إليه كلُّ خائف؛ وذٰلك أنك ترى الظالِمَ وغيرَ الظالِم إذا رأى من يريدُ ظُلمَه دعا إلى العدل، وأنكر الظلمَ حينئذٍ وذمَّه، ولا ترى أحدًا يذمُّ العدل؛ فمن كان العدلُ في طبعه فهو ساكنٌ في ذٰلك الحصنِ الحصين.

[فصل: الاستهانة بالآخرين خيانة]

الاستهانةُ نوعٌ من أنواع الخيانة؛ إذ قد يخونُك مَن لا يَستهينُ بك، ومن استهان بك فقد خانك [بعدم] الإنصاف؛ فكلُّ مستهينٍ خائن، وليس كل خائنٍ مستهينًا.

[فصل: الاستهانة بشيءٍ استهانةٌ بصاحبه]

الاستهانة بالمَتاع دليلٌ على الاستهانة بربِّ المتاع.

[فصل: المُعاتبةُ والاعتذار]

حالانِ يحسُنُ فيهما ما يقبُحُ في غيرهما؛ وهما: المعاتبةُ والاعتذار؛ فإنه يحسُنُ فيهما تعديدُ الأيادي[1]، وذِكرُ الإحسان؛ وذٰلك غايةُ القبح في ما عدا هاتين الحالتين.

[فصل: الطبعُ الفاسد]

لا عيبَ على مَن مال بطبعه إلى بعضِ القبائح ـ ولو أنه أشدُّ العيوب وأعظمُ الرذائل ـ ما لم يُظهِرْه بقولٍ أو فِعل؛ بل يكادُ يكون أحْمدَ ممن أعانه طبعُه على الفضائل [ولم يَسْعَ إليها]، ولا تكونُ مغالبةُ الطبع الفاسد إلَّا عن قوةِ عقلٍ فاضل.

[فصل: أعظمُ الخيانة]

الخيانة في الحُرُم[2] أشدُّ من الخيانة في الدماء.

[فصل: الدِّينُ أغلى من كل شيء]

العِرضُ أعزُّ على الكريم من المال؛ فينبغي للكريم أن يصونَ جسمَه بماله، ويصون نفسَه بجسمه، ويصونَ عِرضَه بنفسه، ويصونَ دينَه بعرضه، ولا يصون بدينه شيئاً أصلًا.

[فصل: الخيانةُ في الأعراض]

الخيانةُ في الأعراض أشدُّ من الخيانة في الأموال؛ وبرهان ذٰلك: أنه لا

---

(١) الأيادي: النِّعم.

(٢) الحُرم: الحرمات. والمراد: أهل الإنسان.

يكادُ يوجد مَن لا يخون في العِرضِ ـ وإن قل ذٰلك منه وكان من أهل الفضل ـ، وأما الخيانة في الأموال ـ وإن قلَّت أو كثُرت ـ ؛ فلا تكون إلَّا من رذْل بعيدٍ عن الفضل.

[فصل: قياسُ الناس على بعضهم قياسٌ فاسد]

القياسُ في أحوال الناس قد يكذِبُ في أكثر الأمور، ويبطُلُ في الأغلب، واستعمالُ ما هٰذه صفتُه في الدين لا يجُوز[١].

[فصل: المُقلّد]

المقلِّدُ راضٍ أن يُغبَن عقلُه[٢]، ولعله ـ مع ذٰلك ـ يستعظمُ أن يُغبنَ في ماله؛ فيخطئ في الوجهين معًا؛ لأنه لا يكرهُ الغَبْنَ في ماله ويستعظمُه إلَّا لئيمُ الطبع رقيقُ الهمة مَهينُ النفس.

[فصل: طاعة اللهِ ورسولِه ﷺ أصلُ الفضائل]

مَن جَهِل معرفة الفضائل؛ فلْيعتمد على ما أمره اللَّهُ والرسول ﷺ؛ فإنه يحتوي على جَميع الفضائل.

[فصل: عاقبة الإفراط في الأمور]

رُبَّ مَخُوفٍ كان التحرُّزُ منه سببَ وقوعه. ورُبَّ سِرٍّ كانت المبالغةُ في طَيِّه[٣] سببَ انتشاره. ورُبَّ إعراضٍ أبلغُ في الاسترابة من إدامةِ النظر[٤].

وأصلُ ذٰلك كله: الإفراطُ الخارجُ عن حد الاعتدال.

(١) أي: لا يُجعل مقياسًا شرعيًّا في الحكم على الأشخاص.
(٢) يُغبن: يخسر وينقص.
(٣) طيِّه: كتمانه.
(٤) أي: ربما يُعرِضُ شخصٌ عن شيءٍ ما، فيجلب الريبةَ لنفسِه أكثرَ مما لو أدام النظر إليه.

[فصل: وسطيَّةُ الفضيلة]

الفضيلة وسطيةٌ بين الإفراط والتفريط؛ فكِلا الطرفين مذموم، والفضيلةُ بينهما محمودة؛ حاشا العقل[١]؛ فإنه لا إفراطَ فيه.

[فصل: الخطأ في الحَزْم]

الخطأ في الحزم خيرٌ من الخطأ في التضييع[٢].

[فصل: من عجائب الأحوال]

من العجائب: أن الفضائل مستحسنةٌ ومستثقَلة، والرذائلَ مستقبحةٌ ومستخَفَّة[٣].

[فصل: طريق الإنصاف]

مَن أراد الإنصاف فلْيتوهَّمْ نفسه مكان خصمه؛ فإنه يلوحُ له وجهُ تعسُّفِه.

[فصل: حقيقةُ «الحزم» و«الخُرْق»]

حدُّ «الحَزْم»: معرفةُ الصديق من العدُو، وغايةُ الخُرْقِ[٤] والضعفِ: جهلُ العدو من الصديق.

[فصل: لا تظلم عدوَّك]

لا تُسْلِمْ عدوَّك لظُلم، ولا تَظلِمْه، وساوِ ـ في ذٰلك ـ بينه وبين الصديق،

---

(١) أي: إلا العقل.

(٢) لأن الحازم لو أخطأ فيمكنه معالجةُ خطئه، أما المضيِّعُ فأنى له إرجاعُ ما ضيعه؟!.

(٣) مستخَفة: خفيفة على النفس.

(٤) الخُرْق: الحمق.

وتحفَّظْ منه(١)، وإياكَ وتقريبَه، وإعلاءَ قدره؛ فإن هٰذا مِن فعل النَّوْكى.

[فصل: لا تُساوِ بين عدوِّك وصديقِك]

مَن ساوى بين عدوه وصديقه ـ في التقريب والرِّفعة ـ : لم يَزِد على أن زَهِدَ الناسُ في مودته، وسهُل عليهم عداوته؛ ولم يَزِدْ على استخفاف عدوِّه له، وتمكُّنه من مَقاتِلِه، وإفسادِ صديقِه على نفسه، وإلحاقِه بجُملةِ أعدائه.

[فصل: غاية الخير، وغاية الشر]

غايةُ الخير: أن يَسلَمَ عدوُّك مِن ظُلمك، ومِن تركِكَ إياه للظلم. وأما تقريبُه فمِن شِيَم النوكى الذين قد قرُب منهم التلَفُ.

وغايةُ الشر: ألَّا يَسْلَمَ صديقُك من ظلمك، وأما إبعادُه(٢) فمِن فعل مَن لا عقل له، ومَن كُتب عليه الشقاء.

[فصل: حقيقة الحِلْم]

ليس الحلمُ تقريبَ الأعداء؛ ولٰكنه مسالمتُهم مع التحفظ منهم.

[فصل: إياك وإبراز النِّعَم لكلِّ أحد]

كم رأينا مَن فاخَر بما عنده من المتاع؛ فكان ذٰلك سببًا لهلاكه؛ فإياك وهٰذا الباب الذي هو ضرٌّ محض؛ لا منفعةَ فيه أصلًا.

[فصل: الكلام أشدُّ هلاكًا منَ الصمت]

كم شاهدنا ممن أهلكه كلامه، ولم نرَ قطُّ أحدًا ـ ولا بَلَغَنا ـ أنه أهلكه

---

(١) تَحفَّظ: احترز.

(٢) أي: بدون جريرةٍ منه في حقك.

سكوتَه؛ فلا تتكلم إلَّا بما يقرِّبُك من خالقك؛ فإن خفتَ ظالمًا فاسكت.

[فصل: لا يُمكنُ تَدارُكُ ما فات]

قلَّما رأيتُ أمرًا أمكن[١] فضُيِّع؛ إلا وفات فلم يُمكِنْ بعدُ.

[فصل: أعظم مِحَنِ الإنسان]

مِحنُ الإنسان في دهره كثيرة، وأعظمُها: محنته بأهل نوعِه من الإنس.

[فصل: أعظم الأدواء]

داءُ الإنسان بالناس أعظمُ من دائه بالسِّباع الكَلِبة والأفاعي الضارية[٢]؛ لأنَّ التحفُّظ من كلٍّ ما ذكرنا ممكن، ولا يمكن التحفُّظُ من الإنس أصلًا.

[فصل: غَلَبةُ النفاق على الناس]

الغالب على الناس النفاق، ومن العَجب أنه لا يجوزُ[٣] ـ مع ذٰلك ـ عندهم إلا من نافقهم!!.

[فصل: عجائب الأضداد]

لو قال قائل: إن في الطبائع كُرِّيَّة[٤]؛ لأن أطراف الأضداد تلتقي: لم يبعُد من الصدق؛ وقد نجد نتائجَ الأضداد تتساوى؛ فنجد المرءَ يبكي منَ الفرح ومن الحزن، ونجد فرْطَ المودة يلتقي مع فرطِ البِغْضة في تتبُّعِ العثرات[٥]،

(١) أي: أمكن فعله.

(٢) الضارية: الشرسة.

(٣) لا يَجوز: لا يُقبل.

(٤) كُرِّية: استدارة.

(٥) العثرات: الزلَّات والهفوات.

وقد يكون ذٰلك سببًا للقطيعة عند عدم الصبر والإنصاف.

[فصل: الطبعُ غالب]

كلُّ مَن غلبت عليه طبيعةٌ ما؛ فإنه ـ وإن بلغ الغايةَ من الحزم والحذر ـ مصروع إذا كُويد من قِبَلِها[١].

[فصل: الرَّيب والكذب]

كثرةُ الريب تعلِّمُ صاحبها الكذب؛ لكثرة ضرورتِه إلى الاعتذار بالكذب، فيَضرَى[٢] عليه ويستسهلُه.

[فصل: أعدلُ الشهودِ على العبد]

أعدلُ الشهود على المطبوع على الصدق: وجهُه؛ لظهور الاسترابة عليه إن وقع في كِذْبة، أو همَّ بها. وأعدلُ الشهود على الكذاب لسانُه؛ لاضطرابه ونقضِ بعضِ كلامه بعضًا.

[فصل: المصيبةُ في الصديق]

المصيبةُ في الصديق الناكثِ أعظمُ منَ المصيبة به[٣].

[فصل: من هو أكثرُ الناس عيبًا؟]

أشدُّ الناس استعظامًا للعيوب بلسانه: هو أشدُّهم استسهالًا لها بفعله، ويتبيَّنُ ذٰلك في مُسافهات أهلِ البَذاءِ، ومشاتَماتِ الأرذال البالغين غايةَ الرَّذالة من الصناعات الخسيسةَ من الرجال والنساء؛ كأهل التعيُّشِ بالزَّمْر

(١) أي: إذا تعرَّض أحد لهٰذا الطبع ظهر مباشرةً.

(٢) يَضرَى: يتمادى.

(٣) أي: المصيبة في الصديق الذي يُخلف وعده أعظمُ من المصيبة بأصل صداقته.

وكنْسِ الحشوش والخادِمين في المجازر، وكساكِني دُورِ الجَمَل[(١)] المباحة لكراء الجماعات، والساسةِ للدواب؛ فإن كلَّ مَن ذكرنا أشدُّ الخلق رميًا من بعضِهم لبعض بالقبائح، وأكثرُهم عيبًا بالفضائح، وهم أوغلُ الناس فيها[(٢)]، وأشهرُهم بها.

[فصل: اللقاء يُذهِبُ الشحناء]

اللقاء يَذهبُ بالسخائم[(٣)]؛ فكأنَّ نظرَ العين للعين يُصلح القلوب؛ فلا يسُؤْكَ التقاءُ صديقك بعدوك؛ فإن ذٰلك يُفترُّ أمره عندك[(٤)].

[فصل: أشدُّ الأشياء على الناس]

أشدُّ الأشياء على الناس: الخوفُ والهمُّ والمرضُ والفقر؛ وأشدُّها كلُّها إيلامًا للنفس: الهمُّ ـ للفقد من المحبوب، وتوقُّع المكروه ـ، ثم المرض، ثم الخوف، ثم الفقر. ودليل ذٰلك أن الفقر يُستعجَلُ ليُطرَدَ به الخوف، فيبذُلُ المرءُ مالَه كلَّه ليأمن، والخوفُ والفقر يُستعجلان ليُطرَدَ بهما أَلَمُ المرض، فيُغرِّرُ[(٥)] الإنسانُ في طلب الصحة، ويبذُلُ ماله فيها إذا أشفق منَ الموت، ويَوَدُّ عند تيقُّنه به لو بذل مالَه كله ويَسلَم ويُفيق.

والخوفُ يُستسهل ليُطرَدَ به الهم؛ فيُغرِّرُ المرءُ بنفسه ليطردَ عنها الهم.

[فصل: أشد الذُّلِّ والألَم]

أشدُّ الأمراض كلِّها ألمًا وجعٌ ملازمٌ في عضوٍ ما بعينه. وأما النفوسُ

---

(١) في بعض المطبوعات: الحَمْل ـ أي: حَمْل المتاع ـ، ولكليهما وجهٌ.
(٢) أوغل الناس: أشدهم تماديًا.
(٣) السخائم: الأحقاد.
(٤) أي: يكشف لك حقيقةَ صديقك. وفي بعض المطبوعات: «عنده».
(٥) يُغرِّر: يخاطر.

الكريمة فالذلُّ عندها أشدُّ مِن كل ما ذكرنا، وهو أسهل المَخُوفاتِ عند ذوي النفوس اللئيمة.

* * *

فصل: في غرائب أخلاقِ النفس

[لا تنخدعْ بالظواهر]

ينبغي للعاقلِ ألَّا يحكُمَ بما يبدو له من استرحامِ الباكي المتظلِّم وتشكِّيهِ وشدةِ تلوِّيه وتقلُّبِه وبكائه؛ فقد وقفتُ مِن بعض مَن يفعل هٰذا على يقينٍ أنه الظالِمُ المعتدي المُفرِطُ في الظلم. ورأيتُ بعض المظلومين ساكنَ الكلام معدومَ التشكي مُظهرًا لقلة المبالاة؛ فيسبقُ إلى نفس مَن لا يحقِّقُ النظر: أنه ظالِمٌ، وهٰذا مكانٌ ينبغي التثبُّتُ فيه ومغالبةُ ميل النفس جُملةً، وألَّا يميلَ المرءُ مع الصفة التي ذكرنا ولا عليها؛ ولٰكن يقصدُ الإنصاف بما يوجبُه الحقُّ على السواء.

[فصل: من عجائب الغَفْلة]

من عجائب الأخلاق: أن الغفلة مذمومة، وأن استعمالها محمود؛ وإنما ذٰلك لأن مَن هو مطبوعٌ على الغفلة يستعملُها في غير موضعها، وفي حيث يجبُ التحفُّظ؛ وهو مغيَّبٌ عن فهم الحقيقة؛ فدخلت تحت الجهل، فذُمَّت لذٰلك.

وأما المتيقِّظُ الطبع؛ فإنه لا يضعُ الغفلةَ إلَّا في موضعها الذي يُذمُّ فيه البحثُ والتقصِّي[1]؛ فهمًا للحقيقة، وإضرابًا عن الطيش واستعمالًا للحلم وتسكينًا للمكروه؛ فلذلك حُمدت حالةُ التغافل، وذُمَّت الغفلة.

وكذٰلك القولُ في إظهار الجزع وإبطانِه، وفي إظهار الصبر وإبطانِه؛ فإن

(١) جاء في المطبوعات هنا ـ بعد «التقصي» ـ كلمةُ «التغافل»! ولا أرى لها وجهًا، ولا تتناسبُ مع سياق الكلام؛ لأن التغافلُ هنا ممدوح ـ كما هو ظاهر ـ، فالصوابُ ـ إن شاء اللّٰهُ ـ حذفها، ويؤيِّده ما يأتي في السطر القادم، والعلمُ عند رب العالمين.

إظهارَ الجزع عند حلول المصائب مذمومٌ؛ لأنه عَجَزَ مُظهِرُه عن مِلكِ نفسه؛ فأظهر أمرًا لا فائدة فيه؛ بل هو مذمومٌ في الشريعة وقاطعٌ عما يلزم من الأعمال وعن التأهُّب لما يُتوقع حلوله! مما لعله أشنعُ من الأمر الواقعِ الذي عنه حدث الجزع؛ فلما كان إظهارُ الجزع مذمومًا كان إظهارُ ضدِّه محمودًا؛ وهو إظهار الصبر؛ لأنه مِلْكٌ للنفس، واطراحٌ لما لا فائدة فيه، وإقبالٌ على ما يعودُ وينتفع به في الحال وفي المستأنَف[1].

وأما استبطانُ الصبر فمذموم؛ لأنه ضعفٌ في الحس، وقسوةٌ في النفس، وقلةُ رحمةٍ؛ وهٰذه أخلاقُ سُوءٍ لا تكون إلَّا في أهل الشر وخُبث الطبيعة، وفي النفوس السَّبُعية الرديئة.

فلما كان ما ذكرنا يقبُحُ؛ كان ضدُّه محمودًا؛ وهو استبطانُ الجزَع لِمَا في ذٰلك من الرحمةِ والرِّقَّةِ والشفقةِ والفهمِ بقَدْر الرزية.

فصحَّ بِهٰذا أن الاعتدالَ هو أن يكون المرءُ جَزوعَ النفس صبورَ الجسد؛ بمعنى أنه لا يَظهرُ في وجهه ولا في جوارحه شيءٌ من دلائل الجزع، ولو علم ذو الرأي الفاسد ما استُضرَّ به من فساد تدبيره في السالف، لأنجح بتركه استعمالَه فيما يُستأنف، وباللّٰه التوفيق.

❁ ❁ ❁

(١) المستأنَف: المستقبل.

فصل: في تطلُّعِ النفسِ إلى معرفةِ ما يُستَرُ عنها من كلامٍ مسموعٍ، أو شيءٍ يُدني إلى الْمَدح وبقاءِ الذِّكْر

هٰذا أمرانِ لا يكادُ يسلمُ منهما أحدٌ إلَّا ساقطُ الهمة جدًّا، أو مَن راض نفسه الرياضةَ التامة، وقَمَع قوةَ نفسِهِ الغضبيةِ قمعًا كاملًا، أو عانى مداواةَ شَرَهِ النفس إلى سماع كلامٍ تُسُتِّر به عنها، أو رؤيةِ شيءٍ أُكتم به دونها أن يفكِّر فيما غاب عنها من هٰذا النوع في غير موضعه الذي هو فيه؛ بل في أقطار الأرض المتباينة.

فإنِ اهتم بكل ذٰلك فهو مجنونٌ تامُّ الجنون عديمُ العقل ألبتة! وإن لم يهتمَّ لذٰلك؛ فهل هٰذا الذي اختُفي به عنه إلَّا كسائرِ ما غاب عنه منه سواءً بسواء ولا فرق؟!.

ثم لْيَزِدِ احتجاجًا على هواه فلْيقل بلسانِ عقله لنفسه: يا نفسُ، أرأيتِ إن لم تعلمي أن هاهنا شيئًا أُخفي عليكِ؛ أكنتِ تتطلَّعين إلى معرفة ذٰلك أم لا؟ فلابد من «لا». فليقل لنفسه: فكُوني الآن كما كنتِ تكونين لو لم تعلمي بأنَّ هاهنا شيئًا سُتر عنكِ فتربحي الراحةَ وطرْدَ الهمِّ وألَمِ القلق وقُبحِ صفةِ الشَّرَه؛ وتلك غنائمُ كثيرة وأرباحٌ جليلة وأغراضٌ فاضلةٌ سَنِية؛ يرغب العاقل فيها، ولا يزهد فيها إلَّا تامُّ النقص.

وأمَّا مَن عَلِق وهْمُه وفِكرُه بأن يَبعُدَ اسمُه في البلاد، ويبقى ذِكرُه على الدهر؛ فلْيُفكِّرْ في نفسه وليقل لها: يا نفس، أرأيتِ لو ذُكرتِ بأفضلِ الذكر في جميعِ أقطار المعمور أبدَ الأبد إلى انقضاء الدهر، ثم لم يبلُغْني ذٰلك ولا عرفتُ به؛ أكان لي في ذٰلك سرورٌ أو غبطةٌ أم لا؟ فلابد من «لا»، ولا سبيل له إلى غيرها ألبتة، فإذا صحَّ ذٰلك وتُيُقِّن؛ فليَعْلم يقينًا [أنه] إذا مات فلا سبيل له إلى علمِ أنه يُذكر أو أنه لا يذكر، وكذٰلك إن كان حيًّا ـ إذا لم يبلغه ـ.

ثم لْيتفكر - أيضًا - في معنيين عظيمين:

أحدهما: كثرةُ مَن خلا من الفضلاء منَ الأنبياء والرسل - صلَّى اللَّه عليهم وسلم - أولًا، والذين لم يَبق لهم على أديم الأرض عند أحدٍ من الناس اسمٌ ولا رسمٌ ولا ذِكرٌ ولا خبرٌ ولا أثرٌ بوجهٍ من الوجوه. ثم من الفضلاء الصالحين من أصحاب الأنبياء السالفين والزهاد، ومن الفلاسفة والعلماء والأخيار وملوكِ الأمم الدائرة وبُناةِ المدن الخالية وأتباع الملوك؛ الذين - أيضًا - قد انقطعت أخبارهم، ولم يبقَ لهم عند أحدٍ علمٌ ولا لأحدٍ بهم معرفةٌ أصلًا ألبتة؛ فهل ضرَّ مَن كان فاضلًا منهم ذٰلك، أو نقص من فضائلهم، أو طمس من محاسنهم، أو حَطَّ درجتهم عند بارئهم ﷻ؟.

ومَن جهل هٰذا الأمر فلْيعلم أنه ليس في شيءٍ من الدنيا خبرٌ عن مِلِكٍ من ملوك الأجيال السالفة أبعدُ مما بأيدي الناس من تاريخ ملوك بني إسرائيل فقط، ثم ما بأيدينا من تاريخ مُلوك اليونان والفرس، وكلُّ ذٰلك لا يتجاوزُ ألفَي عام، فأين ذِكرُ مَن عَمَر الدنيا قبل هٰؤلاء؛ أليس قد دَثَر[1] وفَنِيَ وانقطع ونُسي ألبتة؟!.

وكذٰلك قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ [الفرقان]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩].

فهل الإنسانُ - وإن ذُكر بُرهةً من الدهر - إلا كمن خلا قبلُ من الأمم الغابرة الذين ذُكروا ثم نُسُوا جُملةً؟!.

ثم لْيتفكَّرِ الإنسانُ فيمَن ذُكر بخيرٍ أو بشرٍّ؛ هل يزيده ذٰلك عند اللَّه ﷻ درجةً أو يُكسِبُه فضيلةً لم يكن حازها بفعله أيام حياته؟ فإذا كان هٰذا كما قلناه فالرغبة في الذكرِ رغبةُ غُرور، ولا معنًى له ولا فائدة فيه أصلًا.

---

(١) دَثَر: انمحى.

لٰكنْ إنما ينبغي أن يرغب الإنسانُ العاقلُ في الاستكثار من الفضائل وأعمالِ البِرِّ التي يَستحقُّ مَن هي فيه الذِّكرَ الجميل والثناءَ الحسن والمدحَ وحَميدَ الصفة؛ فهي التي تُقرِّبُه من بارئه تعالى، وتجعله مذكورًا عنده ﷻ الذكرَ الذي ينفعُه ويحصلُ على بقاء فائدتِهِ ولا يَبيدُ أبدَ الأبد، وباللّٰه تعالى التوفيق.

[فصل: وجوب شكر مَن يُسدِي إليك نِعمةً]

شُكر المُنعِم فرضٌ واجب، وإنما ذٰلك بالمقارضة له[١] بمِثل ما أحسن فأكثر، ثم بالتهمُّم بأموره[٢]، وبالتأتِّي بحسن الدفاع عنه[٣]، ثم بالوفاء له حيًّا وميتًا ولمن يتصل به مِن ساقةٍ[٤] وأهلٍ كذٰلك؛ ثم بالتمادي على وُدِّه ونصيحتِه ونَشرِ محاسنه بالصدق وطيِّ مساويه ما دمت حيًّا، وتوريثِ ذٰلك عَقِبَك وأهلَ وُدِّك[٥].

وليس من الشكر عونُه على الآثام وتركُ نصيحته فيما يَوْتَغُ[٦] به دينه ودنياه؛ بل مَن عاون مَن أحسن إليه على باطل فقد غشَّه وكَفَر إحسانه وظَلَمه وجَحَد إنعامه[٧].

وأيضًا فإن إحسانَ اللّٰهِ تعالى وإنعامَه على كل حالٍ أعظمُ وأقدمُ وأهنأ من نعمةِ كلِّ مُنعِمٍ دونه ﷻ؛ فهو تعالى الذي شقَّ لنا الأبصارَ الناظرة، وفَتَق فينا

(١) المقارضة: المقابلة.

(٢) أي: الاهتمام بها.

(٣) أي: إذا حلَّ به ظلم وعدوان.

(٤) الساقة: هم الذين يكونون في آخر الجيش، والمقصود: أقلُّ أتباعه شأنًا.

(٥) أي: وزرع ذٰلك في أولادك ومن تعرفه.

(٦) يَوْتَغ: يُهلك.

(٧) وهٰذا من نفائس الكلم.

الآذان السامعة، ومَنَحَنا الحواسَّ الفاضلة، ورزقنا النطق والتمييز اللذينِ بهما استأهلنا أن يخاطبَنا، وسخَّر لنا ما في السماوات وما في الأرض من الكواكب والعناصر، ولم يُفضِّلْ علينا من خلقه شيئًا غير الملائكة المقدَّسين الذين هم عُمَّارُ السماوات فقط؛ فأين تقعُ نِعمُ المُنعِمِين مِن هٰذه النعم! فمَن قدَّر أنه يَشكر محسنًا إليه بمساعدته على باطلٍ أو بمُحاباته فيما لا يجوز؛ فقد كَفَر نعمةَ أعظمِ المُنعِمين عليه، وجَحد إحسانَ أجلِّ المحسنين إليه، ولم يشكر وليَّ الشكر حقًّا، ولا حَمِد أهلَ الحمد أصلًا ـ وهو اللَّه ﷻ ـ، ومَن حال بين المحسِنِ إليه وبين الباطل، وأقامه على مُرِّ الحق فقد شكره حقًّا، وأدى واجبَ حقِّه عليه مستوفًى، ولِلّهِ الحمدُ أولًا وآخِرًا وعلى كل حال.

❁ ❁ ❁

فصل: في حُضوْر مجالِس العلم

إذا حضرتَ مجلسَ علم، فلا يكن حُضورُك إلا حُضُورَ مستزيدٍ علمًا وأجرًا؛ لا حُضورَ مستغنٍ بما عندك طالبًا عثرةً تُشِيعُها أو غريبةً تُشنِّعها؛ فهٰذه أفعالُ الأرذال الذين لا يُفلحون في العلم أبدًا.

فإذا حضرتَها على هٰذه النية، فقد حصَّلت خيرًا على كل حال، وإن لم تَحضُرْها على هٰذه النية فجلوسُك في منزلك أروحُ لبدنك، وأكرمُ لخُلقك، وأسلمُ لدينك.

فإذا حضرتَها كما ذكرنا، فالتزم أحدَ ثلاثة أوجهٍ ـ لا رابع لها ـ ؛ وهي:

[الوجه الأول]: إما أن تسكتَ سكوتَ الجهَّال؛ فتحصلَ على أجر النيةِ في المشاهدة، وعلى الثناء عليك بقلةِ الفضول، وعلى كرم المُجالَسة ومودَّةِ مُن تجالس.

فإن لم تفعل ذٰلك:

[الوجه الثاني]: فاسأل سؤالَ المتعلِّم، فتحصل على هٰذه الأربعِ محاسن، وعلى خامسةٍ وهي: استزادة العلم.

وصفةُ سؤال المتعلِّم: أن تسأل عما لا تدري ـ لا عما تدري ـ ؛ فإن السؤالَ عما تدريه سُخفٌ وقِلةُ عقلٍ، وشُغلٌ لكلامك، وقطعٌ لزمانك بما لا فائدة فيه ـ لا لك ولا لغيرك ـ ، وربما أدَّى إلى اكتساب العداوات، وهو يُعَدُّ عينَ الفضول[1].

فيجب عليك ألَّا تكون فضوليًّا؛ فإنها صفةُ سُوء؛ فإنْ أجابَك الذي سألتَ بما فيه كفايةٌ لك، فاقطع الكلام، وإن لم يُجِبْك بما فيه كفايةٌ، أو أجابك بما

(١) لٰكن يجوز أحيانًا للعبد أن يسأل عمَّا يعلمُ إجابته؛ إذا كانت نيتُه نفعَ من لا يعلم الإجابة.

لم تفهم، فقل له: «لم أفهم»، واستزِدْه؛ فإن لم يَزِدك بيانًا وسكت، أو أعاد عليك الكلام الأول ـ ولا مزيد ـ ؛ فأمسك عنه[1]، وإلا حصَلتَ على الشرِّ والعداوة، ولم تحصل على ما تريد من الزيادة.

والوجه الثالث: أن تُراجِعَ مراجعةَ العالِم، وصفةُ ذٰلك: أن تعارِضَ جوابه بما ينقضُه نقضًا بيِّنًا، فإن لم يكن ذٰلك عندك، ولم يكن عندك إلا تكرارُ قولك أو المعارضة بما لا يراه خَصمُك معارضةً، فأمسك؛ فإنك لا تحصل بتكرار ذٰلك على أجرٍ زائد، ولا على تعليم، ولا على تعلُّم؛ بل على الغيظ لك ولخصمك، والعداوةِ التي ربما أدَّت إلى المضرَّات.

وإياك وسؤالَ المعنِّت[2] ومراجعةَ المكابر الذي يطلب الغَلَبةَ بغير علم؛ فهما خُلُقا سُوء، دليلان على قِلةِ الدين، وكثرة الفضول، وضعف العقل، وقوةِ السُّخف، وحسبنا اللّٰه ونعم الوكيل.

وإذا ورد عليك خطابٌ بلسان، أو هجمت على كلامٍ في كتاب؛ فإياك أن تقابله مقابلةَ المغاضبةِ الباعثةِ على المغالبة قبل أن تتيقَّن بطلانَه ببُرهانٍ قاطع.

وأيضًا فلا تُقبل عليه إقبالَ المُصدِّق به المستحسِن إياه قبل عِلمِك بصحته ببُرهانٍ قاطع؛ فتَظلِمَ في كلا الوجهين نفسَك، وتَبعُدَ عن إدراك الحقيقة، ولٰكن أقبِلْ عليه إقبال سالِمِ القلب عن النزاع عنه والنزوع إليه؛ لٰكن إقبالَ مَن يريد حظَّ نفسه في فَهم ما سمع ورأى؛ فتزيدَ به علمًا، وقبولُه إن كان حسنًا، أو ردُّه إن كان خطأً؛ فمضمونٌ لك ـ إن فعلتَ ذٰلك ـ الأجرُ الجزيل، والحمد الكثير، والفضل العميم.

---

(١) أي: فاسكت ولا تكرر السؤال.

(٢) المُعنِّت: من يريد تعجيز غيره والإثقال عليه.

[فصل: هناك مَن هو أعزُّ منك]

مَن اكتفى بقليلِه عن كثير ما عندك؛ فقد ساواك في الغنى ـ ولو أنك قارون ـ ، حتى إذا تصاون في الكسب عما تَشرَهُ أنت إليه، فقد حصَّل أغنى منك بكثير. ومن ترفَّع عما تخضعُ إليه من أمور الدنيا فهو أعزُّ منك بكثير.

[فصل: العلم والعمل]

فرضٌ على الناس تعلُّمُ الخير والعملُ به؛ فمن جمع الأمرين فقد استوفى الفضيلتين معًا. ومَن علَّمه ولم يعمل به فقد أحسن في التعليم وأساء في ترك العمل به؛ فخَلَط عملًا صالحًا وآخر سيئًا، وهو خيرٌ من آخَرَ لم يُعلِّمْه ولم يعمل به.

وهٰذا الذي لا خيرَ فيه أمثلُ حالًا وأقلُّ ذمًّا من آخَرَ يَنهَى عن تعلُّم الخير ويصدُّ عنه. ولو لم يَنهَ عن الشر إلَّا مَن ليس فيه منه شيءٌ، ولا أَمَر بالخير إلا من استوعبه؛ لَمَا نَهى أحدٌ عن شر، ولا أمر بخيرٍ بعد النبي ﷺ؛ وحسبُك بمن أدَّى رأيُه إلى هٰذا فسادًا وسوءَ طبع وذمَّ حال، وباللّٰه تعالى التوفيق.

فاعترض هاهنا إنسانٌ فقال: كان الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1] إذا نَهى عن شيءٍ لا يأتيه أصلًا، وإذا أمر بشيءٍ كان شديدَ الأخذ به، وهٰكذا تكونُ الحكمة.

○ وقد قيل: «أقبح شيءٍ في العالِم أن يأمر بشيءٍ لا يأخذ به في نفسه، أو ينهى عن شيء يستعمله».

[وقد] كَذَب قائلُ هٰذا! وأقبحُ منه مَن لم يأمر بخير ولا نَهى عن شر، وهو مع ذٰلك يعملُ الشر ولا يعملُ الخير.

---

(١) يعني: البصري. وهو المقصود من إطلاق المحدثين.

○ وقد قال أبو الأسود الدؤلي:

لا تَنْهَ عن خُلُقٍ وتأتي مِثلَهُ   عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمُ
وابدأْ بنفسك فانْهَهَا عن غَيِّها   فإذا انتهتْ عنه فأنت حكيمُ
فهناك يُقبلُ إنْ وَعظتَ ويُقتدَى   بالعلم منكَ وينفعُ التعليمُ

[فـ]إن أبا الأسود إنما قصد بالإنكار المجيءَ بما نَهى عنه المرء، وإنه يتضاعفُ قبحُه منه مع نَهيه عنه؛ فقد أحسن[١]؛ كما قال اللَّه تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤].

ولا يُظنَّ بأبي الأسود إلا هٰذا. وأما أن يكون نَهى عن النهْي عن الخُلق المذموم[٢]؛ فنحن نُعيذه باللَّه من هٰذا؛ فهو فِعلُ مَن لا خير فيه.

○ وقد صح عن الحسن أنه سمع إنسانًا يقول: «لا يجب أن يَنهى عن الشر إلا مَن لا يفعله. فقال الحسن: ودَّ إبليسُ لو ظفر منَّا بِهٰذه حتى لا ينهى أحدٌ عن منكر ولا يأمر بمعروف».

وصدق الحسن، وهو قولنا آنفًا.

جَعَلنا اللَّهُ ممن يوفَّقُ لفعل الخير والعمل به، وممن يُبصِرُ رُشدَ نفسه؛ فما أحدٌ إلا له عيوبٌ إذا نظرها شغلَتْه عن غيره، وتوفانا على سنةِ محمدٍ ﷺ؛ آمين رب العالمين.

تم الكتاب، والحمد للَّه تعالى وحده، وصلاته وسلامه على أفضل خلقه سيدنا محمد، وعلى آلِه وصحبه وعِتْرتِه الطاهرين أبدًا إلى يوم الدين؛ آمين.

❁ ❁ ❁

(١) يعني أبا الأسود رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٢) أي: وأما أن يكون نَهَى الغير عن إنكار المنكر ـ ولو كان عاصيًا ـ .

فهرس الموضوعات

❁ ❁ ❁